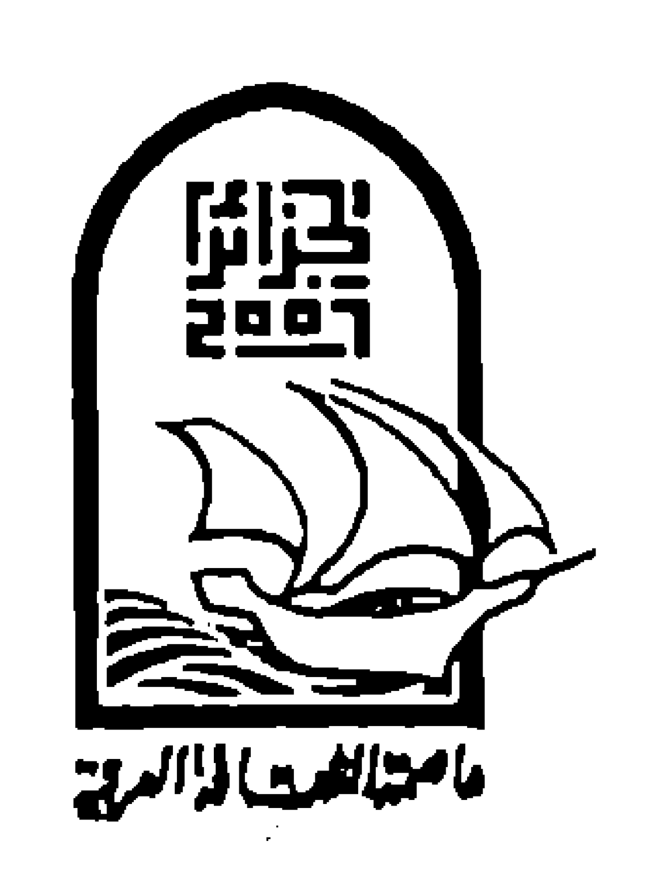


فندلين شلوصر
قسنطينة أيام أحمد باي
1837-1832
ترجمة وتقديم:
د. أبو العيد دودو

صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع

فندلين شلوصر

قسنطينة
أيام أحمد باي



مقدمة

هذه وثيقة جديدة هامة ، تضاف الى الوثائق الأخرى ، التي تتحدث عن فترة من فترات تاريخنا في القرن الماضي ، وتضيء بعض جوانبه الغامضة . واذا كانت بعض الوثائق قد قدمت لنا معلومات قيمة عن مدينة الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي ، وذلك ما فعلته مذكرات بفايفر ، التي نشرت وعرفها القراء قبل سنوات ، فان هذه الوثيقة الجديدة تتحدث هي الأخرى عن مدينة قسنطينة قبل ان يتم احتلالها ، وتبرز بصورة خاصة الصراع الذي عرفته منطقة الشرق الجزائري بكاملها في تلك الفترة ، كما تقدم صورة صادقة عن ظروف الاحتلال وملابساته العديدة ، دون أن تغفل دور المواطنين في مقاومة المعتدي ومحاولتهم الوقوف في وجه جنوده وأمام مدافعه الفاتكة .

ومؤلف هذه الوثيقة شاب ألماني أيضا ، وقع له ما وقع لمواطنه سيمون بفايفر ، مع فارق واحد ، وهو أن المؤلف فندلين شلوصر لم يرغم على المجيء الى الجزائر ، وانما جاء اليها طوعا ، وعن رغبة تامة ، فشاءت الظروف أن يعرف نفس المصير ، ويكتوي بنفس النار التي اكتوى بها مواطنه .

ومعلوماتنا عن حياة فندلين شلوصر محدودة ، فهي لا تتعدى ما أورده هو نفسه في كتابه على غرار ما فعله بفايفر أيضا . فقد ذكر أثناء حديثه عن حياته السابقة أنه ولد في مدينة ايرفورت ، وأن أسرته كانت فقيرة ، يزيد عدد أفرادها عن الحد المطلوب ، فاضطرته الظروف الى التخلي عن دراسته الثانوية ، والتحق بعد ذلك بمدرسة مهنية ، وما أن أنهى الفترة التعليمية المحددة ، حتى التحق بأحد المعامل المنجمية ، غير أن العمل به لم يرق له ، فانتقل ، وهو في الواحدة والعشرين من عمره ، الى منطقة هارتس المعروفة بمناجمها العديدة . ولم يوفق في هذه المرة أيضا في العثور على عمل مناسب ، ولكنه وفق ، على حد تعبيره ، في شيء آخر . فقد تعرف على عدد من زملائه في المهنة ، فعرف منهم أن شخصا انجليزيا يبحث عن عمال منجميين ليتعاقد معهم لحساب شركة انجليزية ، ويرسلهم الى البرازيل للعمل في المناجم التابعة لهذه الشركة .

ولم يفكر شلوصر في الأمر طويلا ، فقد اتصل بذلك الشخص الانجليزي في الحال ، وتحدث معه عن شروط العمل في البرازيل ، ثم وقع معه العقد ، وسافر الى البرازيل في أواسط نوفمبر سنة 1827 . وبعد اقامة قصيرة في عاصمتها ، توجه الى مكان عمله في منطقة لا تبعد كثيرا عن الساحل . ولكنه لم يلبث أن ندم على تركه لوطنه ، وعذبه الحنين ، فبدأ يفكر في العودة اليه . وصادف أن التقى في تلك الفترة بقس ألماني عجوز ، فأشفق عليه ، ونصحه بالعودة الى بلاده قبل أن يهرم مثله ويستحيل عليه مغادرة هذه القارة التي نزح اليها . وأثرت كلماته في نفس شلوصر ، فعمل بنصيحته الأبوية ، وعاد الى وطنه في سنة 1829 في حالة بئيسة ، فبعد ان اشتغل ملاحا في الباخرة التي حملته الى الشواطيء الاروبية ، رجع الى مسقط راسه مشيا على قدميه .

وأقام شلوصر فترة بين أهله وذويه ، ثم عاوده الحنين الى الغربة ، واستبدت به الرغبة في القيام بمغامرة جديدة ، فسافر الى فرنسا ، وانضم الى الفرقة الأجنبية ، ضاربا بنصيحة من أشفق على شبابه عرض الحائط وأبحر معها الى الجزائر في شهر جويلية سنة 1831 ، وبقى في العاصمة بضعة أشهر ، وكانت اقامته « بحوش مصطفى باي » . ولما نقل مقر فرقته الى « حوش القنطرة » بالحراش ، وقع مع عدد من زملاله يوم 12 أبريل 1832 بين أيدي رجال المقاومة الجزائرية ، فحمل الى المناطق الجبلية ، وهناك اشتراه أحد المرابطين ، فعمل عنده فترة ، انتقل بعدها عن طريق البيع الى « حوش ابن زعمون » ، ولم يبق عنده أيضا فترة طويلة ، اذ قدمه بدوره هدية الى سيدي علي بن عيسى ، مرابط «قرومة » بنواحي الأخضرية ، وفي النهاية استقربه المقام في مدينة قسنطينة ، فعاش في قصر أحمد باي بصفته مملوكا من مماليكه ما يقرب من خمس سنوات مارس خلالها عدة أعمال ، كان آخرها تولية لمنصب المدفعي في جيش أحمد باي ، وهو ما سيجده القارىء مفصلا في هذا الكتاب الذي بين يديه .

لقد عاد شلوصر الى بلاده بعد احتلال قسنطينة مباشرة ، وأصدر كتابه هذا سنة 1839 ، وبذلك تنتهي معلوماتنا عن حياته الخاصة ، بحيث لا نعرف عنها شيئا في المراحل التالية . واذا استثنينا فهرس الكتب الالمانية ، الذي ذكر اسمه وعنوان كتابه مجردا عن أية معلومات إضافية ، فاني لم أجد له ذكرا في كتب التراجم والموسوعات الألمانية التي أمكنني الاطلاع عليها في مكتبة جامعة الجزائر . وهذا لا ينفي طبعا أن تكون مصادر أخرى قد تحدثت عنه فيما بعد ، ولاسيما الصحف التي أولته عناية كبيرة أيام اقامته في الجزائر ، كما أشار الى ذلك هو نفسه في مقدمة كتابه .

ووضع المؤلف في الأصل عنوانا طويلا لكتابه هذا ، حيث سماه [رحلات في البرازيل والجزائر ، أو مصائر فندلين شلوصر البومباجي السابق لأحمد باي بقسنطينة] . وقد قسم كتابه الى جزئين ، فتحدث في الجزء الأول منه عن حياته في البرازيل فيما بين سنة 1827 و 1829 ، وصفحات هذا الجزء لا تتجاوز أربعا وثلاثين صفحة ، وقد ضربت عنه صفحا بطبيعة الحال . أما الجزء الثاني فقد خصصه للحديث عن إقامته في الجزائر ، اذ كانت حياته فيها أطول وأكثر تنوعا ، وجعل عنوانه [الجزائر 1831 — 1837] ، ولكنه لم يخص مدينة الجزائر فيه الا بصفحات قليلة ، ولهذا ارتأيت تغيير العنوان الأصلي للكتاب حتى يكون عنوانه أكثر دلالة وموضوعه أكثر تحديدا ووضوحا .

وقد صدر المؤلف كتابه بابيات شعرية ، اقتبسها من قصيدة طويلة للشاعرالالماني الشهير فريدريش شيلر [1759 — 1805] ، يروي فيها قصة الغطاس الذي نزل الى أعماق البحر ليعود بكوب ذهبي ، كان الملك قد ألقى به فيه عمدا وبقصد التسلية لا غير . وقد وجدها المؤلف فيما يبدو مطابقة لما عاناه هو في الجزائر . وهذه الابيات هي :

وهناك تعلقت بناتئ من الصخر ، وقد
أرعبني بعدي عن النجدة الانسانية ،
فقد كنت القلب الوحيد النابض تحت اليرقات ،
أتنفس في حدة رهيبة ، عميقا
تحت صدى الكلمة الانسانية الطيبة ،
لدى جبابرة القفر الأليم .

وقد ذكر شلوصر في مقدمة كتابه القصيرة أنه عاش في الجزائر كواحد من أهاليها ، ولذلك فانه سيقدم صورة أمينة عن حياة سكانها وعن أخلاقهم ، وعاداتهم وتقاليدهم ، ستكون أكثر صدقا من كل ما عرفه الناس عنهم عن طريق الجرائد والصحف السيارة ، واتهم الصحافة الفرنسية بأنها لم تكن صادقة .. على الأقل فيما نشرته عنه أثناء عودته الى وطنه : وكان هذا كله هو ما حدا به الى وضع كتابه عن الجزائر . واعترف أيضا بأنه ليس عالما ، فثقافته المحدودة لم تسمح لا بوصف الآثار التاريخية ولا بقراءة النقوش الرومانية وغيرها ، وهي معارف كان في امكان شخص آخر أن يهتم بها ويحاول تحليلها ونشر استنتاجاته عنها بين الناس ، وأبدى أسفه لعدم استطاعته دراسة اللغة العربية دراسة دقيقة ، واعتذر عن ذلك بأن الأهالي أنفسهم كانوا عاجزين عن مساعدته في فهم القواعد النحوية وطريقة بناء التراكيب اللغوية .

يقدم شلوصر في كتابه هذا معلومات كثيرة ومتنوعة ، ليس في نيتي أن أتحدث عنها بالتفصيل في هذه المقدمة ، ولا أن أتدخل بين المؤلف والقارىء المتخصص ، وانما أكتفي بالاشارة الى أنه يحدثنا عن عدة شخصيات جزائرية ، لعبت دورا تاريخيا مهما ، ومع ذلك بقيت معلوماتنا عنها ضئيلة ، فهو يحدثنا بنوع من التفصيل عن حياة ابن زعمون ، وعلي بن عيسى ، وأحمد باي ، وأحمد بو مزراق ، ويصفهم وصفا مجسما ، ويستعرض برنامج بعضهم اليومي ، ويعلق على ذلك كله من وجهة نظره الخاصة . ويذكر لنا الشيء الكثير عن الأوضاع في مدينة قسنطينة أيام الحملة الأولى والحملة الثانية التي تم احتلالها فيها وبين موقف المواطنين من العدو الاجنبي ، دون أن ينسى أن يحدثنا أيضا عن الحياة الشعبية بأفراحها وأحزانها في المدينة والريف ، ويصورها تصويرا رائعا ، فيتيح بذلك لكل منا أن يرى نفسه في البيئة التي نشأ بها ، ويعيد الى ذهنه بعض الصور التي نسيها أوكاد ينساها . واذا لم تكن المعلومات التي يوردها شلوصر كلها صحيحة كل الصحة ، لعدم وجود وثائق أخرى ، فان ما يمكن مقارنته منها بالوثائق المتوفرة على الأقل لايقبل الشك في صحته ، وقد حاولت جهدي — وهو جهد انسان غير متخصص — الاشارة الى مواطن التشابه بين هذه الوثيقة — وثيقة شلوصر — وبقية الوثائق الأخرى التي بين يدي .

وقبل ان اضع القلم ارى من واجبي ان اقدم شكري الخالص الى صديقي الدكتور فريدريش كوخفاسر ، رئيس تحرير مجلة التبادل الثقافي ، التي يصدرها معهد العلاقات الخارجية بمدينة شتوتجارت، وقد سبق له أن أصدر قبل سنوات عددا خاصا عن الجزائر الحديثة ، فاليه وحده يعود الفضل في حصولي على هذا الكتاب الهام بعد أن فشلت جميع محاولاتي مع المؤسسات الوطنية ! وأوجه شكري أيضا الى صديقي الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي أرشدني الى بعض المراجع التاريخية المتعلقة بمدينة قسنطينة ، كما أشكر من ساعدني من قريب أو بعيد على انجاز هذه الترجمة وتقديمها الى المطبعة وأملي أن يجد فيه المتخصصون ما يضيء بعض ما غمض من فترات التاريخ الماضية .

أبو العيد دودو

الجزائر ، بن عكنون . 1977/3/21

الجزائر
1831 ـ 1837

الفصل الأول

مدينة الجزائر - حوش القنطرة - هجوم البدو والوقوع في الأسر

لم أكد أقضي سنة ونصفا في وطني حتى عاودتني الرغبة في السفر ، لان التجارب التي عشنها في البرازيل لم تترك في نفسي أثرا عميقا ، يحول بيني وبين أن أطمح في جزء من العالم الى تحقيق ما لم يقدرلي تحقيقه في الجزء الآخر . فالانسان يعتقد اعتقادا جازما أنه كلما أبتعد أكثر كانت حياته أوفر سعادة وحرية ، واعتقاده هذا يدفعه الى قطع صلاته الحميمة والتخلي عن كل ما هو خاص به . ولكن الحقيقة أله كلما أزداد بعدا أزداد احساسه بأن العادات والتقاليد الاجنبية تضيق عليه الخناق بصورة مطردة ، واقتنع بالتالي أن السعادة الانسانية لاتشكلها الحياة الطليقة ، وانما تشكلها الحياة المقيدة بقيود مناسبة ، وهذه لاتوجد الا في الارض التي ولد فيها وبين الناس الذين تعلم لغتهم .

ان الفتوحات الفرنسية الجديدة في افريقيا ، التي بسطت أمام عدد من المغامرين الالمان آمالا عريضة ، قد حملتني أنا الآخر على مغادرة وطني في شهر أبرايل سنة 1831 للمرة الثانية والابحار الى الجزائر مع الفرقة الألمانية الفرنسية .

كنت قد ذهبت لمقابلة قائد ميتس ، فنصحني بالعدول عن ذلك والاكتفاء بالسفر الى فرنسا من أقصر طريق للعمل بها . ولكن بصيرتي كانت عمياء ، الى درجة أني رفضت عرضا تقدم به الي ، وهو أن يحملني رسالة الى صديق له في باريس ، كان عقيدا في الجيش . وتوجهت في الحين الى بلر لودوق لاتقدم الى مقر الفرقة الاجنبية . وهناك وجدت عددا كبيرا من المتطوعين الالمان ، ولكنهم كانوا يعيشون في وضع سيء ، بحيث اني ترددت كثيرا في

الامر . وفكرت في تغيير راي وفي العودة الى وطني لارتمي بين احضانه طالبا منه العفو والمعذرة ويا ليتني فعلت ذلك ! كنت عندئذ اوفر على نفسي تجربة مريرة .

أستقبلت بفرح بالغ ، وسكنت في منزل أحد المواطنين نظرا لانعدام وجود ثكنة . وكنا نعاني في البداية من قلة اللباس . ولم تكن الاسلحة متوفرة في المستودع . ولذلك قمنا بتدريباتنا مشيا على الاقدام وتحت امرة القيادة الفرنسية. وعندما تكونت لدينا المهارة اللازمة . أحضرت لنا ذات يوم بضع مئات من الهراوي لنتدرب عليها نظرا لعدم توفر البنادق . فأثارت هذه الاهانة تذمرا كبيرا بيننا نحن الألمان ، وفجأة أنطلقت تلك الهراوي من أيدينا في جميع اتجاهات ميدان التدريب . فثار قائد الكتيبة بسبب ذلك ، واستنجد بالحرس الوطني لارغامنا على الخضوع والطاعة . ولكننا أعلنا بأننا سنرد على العنف بالعنف ، فلم يوافق قائد الحرس على تلك الطريقة ، وهكذا تخلصنا من هذه الآلات التدريبية المهينة . وسلمت الينا بعد حين بنادق حقيقية تدربنا عليها .

وفي شهر جويلية وصلت الى بار لودوق كتيبة أخرى من المتطوعين . ولكي نتخلى لها عن الميدان توجهنا . وكان عددنا ثمانمائة رجل . الى نانسي . ومنها انتقلنا . بعد اقامة دامت خمسة عشر يوما . الى جنوب فرنسا . لنركب السفينة من طولون . وسرعان ما أبعدتنا رياح شديدة . ولكنها مواتية عن شواطئ أوربا . وكانت سفينتنا تسير بصورة جيدة وقد حرص قائد الكتيبة ، وهو بروفنساني يدعى سالومو ، كان يحب كتيبته كثيرا ، على أن تكون السفرة مريحة قدر الامكان . حتى لاتفقد مهابتها بوجود عدد كبير من المرضى . ومع ذلك فقد أصيب زملائي كلهم ، باستثنائي انا وعدد قليل ، بدوار البحر. واذا كنت لم أستفد شيئا من سفرتى السابقة ، فقد استفدت من هذه السفرة ، وذلك بتناول حصص الزملاء من الخمر . وفي اليوم الثالث داهمتنا عاصفة ، هزت سفينتنا بشدة ، ولكنها لم تعق سيرها ، ولم تلحق أضرارا بها واستغرقت سفرتنا بعد ذلك سبعة أيام . أشتد خلالها المرض على رفقائي . وقبل وصولنا بيوم واحد شهدنا في السماء قمم الاطلس الشامخة ، وفي صبيحة اليوم الثاني تراءت لنا التلال المحيطة بالجزائر وأخيرا شاهدنا المدينة نفسها ببيوتها المسطحة البيضاء على الطريقة الشرقية ، وكانت تبدو على البعد شبيهة بجبل أجرد .

ودخلنا الميناء ببطء . ويقع على يسار المدينة بالنسبة للداخل . وهو واسع جدا . الا أن موقعه المكشوف وقلة امتداده داخل الارض لايوفر للسفن الاستقرار والامان . ولم نجد في الحصون المحيطة به سوى عدد قليل من المدافع الموجهة نحو المدينة . أما مدافع الحصون

الباقية فقد سلبت بعد احتلال الجزائر وأرسلت الى فرنسا . وحوالي الواحدة بعد الظهر غادرنا السفينة ، وصعدنا تحت أنغام الطبول الى القصبة حيث يوجد قصر الداي ، وقد سقط في الطريق عدد منا مغمى عليه وذلك بسبب شدة الحرارة وأكثر من ذلك بسبب التعب الناتج عن الصعود ، ولم نصل نحن البقية الى المكان المحدد الا بشق الانفس . وابتهجنا عندما وصلنا أخيرا الى قصرنا المؤقت ، وهو مسجد قديم فيما بدأ لي نعمنا فيه بالراحة !

وفي اليوم التالي تجولت عبر شوارع المدينة ، فوجدت كل شيء في حالة يرثى لها ، فالبيوت منخفضة ، تأخذ فيها الثقوب الهوائية محل النوافذ . ولم تكن هناك بناية جميلة على الاطلاق ، باستثناء ترسانة صغيرة في القسم الاسفل من المدينة وقصر القصبة . وكانت الشوارع غير مستوية ومبلطة بصورة رديئة وضيقة جدا بحيث لاتكادتتسع لعربة واحدة كان هناك شارع واحد معبد الى حد ما ، يفضي الى باب الواد . ولمدينة الجزائر اربعة ابواب ، بابان في الناحية البحرية وآخران في الناحية البرية ، ويحرسها الحصنان المذكوران آنفا والقصبة ، وتشكل حدودها الخارجية أرض كثيرة التلال شبيهة بالهلال ، تمتد في الشمال في جانبي الجزائر على ساحل البحر . وتتسع في الجنوب ، وتنتهي فيه على بعد 6 ساعات من المدينة . ومنظر هذه التلال بهيج جدا . والاراضي شديدة الخصوبة . وتحتوي على العديد من البساتين والبيوت الريفية ، التي يسكنها أبناء الطبقة الراقية في الجزائر أيام الصيف ، وقد استولى عليها الفرنسيون الآن بعد فرار أهلها. وهناك ضياع وزعت مع بيوتها على المعمرين الفرنسيين والآلمان . وخلف هذه التلال يمتد بشكل هلالي أيضا سهل متيجة الجميل ، الذي يبلغ طوله 730 ساعة وعرضه أربع أو سبع ساعات . تحيط به جبال الاطلس . وتشقه عدة انهار صغيرة ، من بينها وادى ماء الزعفران في الغرب ، والحراش في الشرق على حدود التلال ، وتكون هذه الانهار عددا من المستنقعات على سفوح التلال ، تجعل الاقامة بها خطيرة جدا . ولم يكن الجزء الذي أستولى عليه الفرنسيون من هذا السهل يقدم أثناء وجودي هناك غير التبن لاطعام الخيل . أما في الامكنة المتاخمة لجبال الاطلس فقد شاهدت فيها عددا من الاراضي المزروعة والحدائق المشجرة ، كما شهدت قرى طينية متناثرة هنا وهناك .


وفي اليوم الثالث من وصولنا أنتقلت كتيبتنا الى بناية كبيرة ، وهي منزل مصطفى باي ، لاتبعد كثيرا عن المدينة ، لتقيم بها ولا شك أنها كانت سابقا بناية جميلة ، فقد كانت تحتوي على عدد من الغرف الكبيرة زينت جدرانها بحجارة مربعة ذات رسوم ، ولكنها أصبحت اليوم مبعثرة ، وقد تهدمت الآن الى حد كبير . فقد نبتت الاعشاب في الامكنة الثلاثة التي

تحتل وسطها . كما نمت الحشائش الضارة في الحديقة الكبيرة بين اشجار التفاح . والكمثري . والبرتقال والليمون والتين والرومان والخروب .

كانت الطرق في حالة سيئة ، لا تساعد على السير . ولذلك أنحسر عملنا . الذي استمر عدة شهور ، في بداية الامر في تجفيف الارض . وبناء الطرق . واقامة التحصينات . وكنا نعاني كثيرا من الحرارة والمناخ الجنوبي ، وكان هذا يعني طبعا المرارة وخيبة الامل بالنسبة لمن كان ينتظر أن يعيش أياما سعيدة . وعندما تقدمت أعمالنا فيما بعد نقل مقرنا الى حوش القنطرة قرب الحراش . وكانت المستنقعات في هذه المنطقة أكثر عمقا . نظرا لما فيها من السواقي العديدة وكان المناخ خطرا . وكان علينا هنا أيضا أن نجفف الارض لنجعل المنطقة صالحة للسكن . وحوش القنطرة بناية كبيرة مربعة ، كانت محط رحال قوافل القبائل والعرب ، كانت تكون في بدء اقامتي بالجزائر حدود الفتوحات الشرقية ، لايتعداها أحد دون أن يعرض نفسه للخطر ، لان الحصون الفرنسية لم تكن قد بنيت قربها بعد . كنا نقيم اذن أمام العدو مباشرة ، وهو ما جعلنا نعيش في البداية في حذر شديد حتى لا يهاجمنا العرب ونحن دون حراسة ومرت شهور . لم نر خلالها بدويا واحدا . وهكذا تحول انتظارنا لمجابهتهم تدريجيا الى اطمئنان ، فاعتقدنا أنه لا خطر علينا اطلاقا . ثم اتضح لنا مقدار هذا الخطأ الذي ارتكبناه يوم 2 أبريل 1832 م ، ذلك اليوم الذي حكم علي فيه أن أتعذب لمدة طويلة .

ذهبت مع أربعة من رفاقي الى أقرب غابة لجلب الحطب ، وكان ثلاثة منهم مزودين بالبلط لقطع الخشب . أما أنا ورفيق آخر فكنا نحمل حبلا لربط الاخشاب في رزم . فنزلنا الهضبة ، وعبرنا جسر الحراش الجميل الذي كانت تزينه نقوش عربية ودخلنا غابة من أشجار الدفلى وشجيرات الفستق كانت تزداد كثافة كلما تقدمنا فيها . لم نكن نتصور أن مكروها ما يمكن أن يحدث لنا . وشجعنا على ذلك أننا لم نكن مسلحين اطلاقا . كما لو أننا كنا أمام عدو لا يسمح له نبله بالاعتداء على أناس عزل . وهكذا توغلنا في الغابة ، لأن الاخشاب التي قطعناها كانت خضراء ومبلولة . وكنا نأمل أن نعثر على أخشاب جافة . وقد عثرنا عليها بالفعل . وعندما تأهبنا لجمع ماقطعناه سمعت فجأة وقع أقدام الخيل . وما أن التفت حتى رأيت عددا من القلنسوات الحمر . يبتسم أصحابها في شماتة من بين الغصون القريبة منا . كان الاعراب قد نزلوا عن ظهور خيولهم وجلسوا فوق الأرض . ومع أن ذلك لم يكن مفاجأة سارة بالنسبة الينا . اذ عرفنا أن نمورا تقيم حولنا ، فقد واصلنا عملنا . الا أن عددهم لم يبق قليلا . حيث بلغ في رمشة عين ثلاثين رجلا . وعندئذ شعرنا بالخوف . إذ لم يعد ثمة مجال للشك في انهم يريدون الشر بنا ، وأن علينا في الوقت نفسه أن نفكر في

انقاذ أنفسنا . وفي تلك اللحظة نفسها أحاطوا بنا . فاندفع منهم قسم نحو رفقائي . واندفع القسم الآخر نحوي وكانوا مسلحين بالسيوف والمسدسات . وكنت عاجزا عن الدفاع عن نفسي . ولذلك فقد طرحوني أرضا . ونزعوا عني ثيابي ومزقوها . ثم قيدوا يدي ورجلي وأركبوني فوق بغل . تلك اذن كنت فائدة الحبال التي حملتها معي ! ومن يدري ماذا كان يحدث لي لو أنهم وجدوا لدي بلطة !



الفصل الثاني

عمل العبد - بن زعمون ، الرئيس الأول ، وسيدي علي بن عيسى المرابط الأول بالنسبة للقبائل

حملت عبر متيجة إلى الجبال ، وقد أفقدني الفزع احساسي ووعيي ، وكل ما لا حظته في تلك الحالة أن الجبال كانت عالية جدا . فكثير ما كان علينا أن نصعد ساعة لكي نصل الى قمة الجبل . وكانت الغابات التي تغطيها كلها تقريبا تتكون من أشجا الدفلى ونباتات العرعر ، وبين السلسلة الجبلية كان يوجد في كل منها وهدة ضيقة خصبة مزروعة . غير ان سكان ا الاطلس لا يقيمون في هذه الوهاد فقط ، وانما يبنون بيوتهم أيضا في الهوى ليحموها من هجمات ا الأعداء ومن الماء في الشتاء . ويسكن ا الاتراك والعرب القسم الجنوبي من ا الأطلس . وتسكن قبيلة حجوط في غربه . والقبائل في شرقه .وكلما توغلنا في داخل البلاد كان عدد السكان يزداد . بحيث اني كنت أشاهد في أغلب ا الأحيان قرية من الخيام بعد كل ألف خطوة ، وكانت الوهاد تزداد اتساعا ، يبلغ عرضها في بعض ا الاحيان ثلاث أو أربع ساعات ، وطولها 8 أو 10 ساعات ، كما كانت ا الاراضي تزداد خصوبة وتكثر بها مراعي الماشية .

في حوالي الساعة العاشرة ليلا على وجه التقريب رايتني على حين غرة محاطا بعدد كثير من النيران ، وأنزلت في الحين عن ظهر البغل بقوة ووضعت بين جمع من الفلاحين يزيد عددهم عن مائتين . فجلست هناك أنتظر في خوف المصير الذي سيحدده لي هؤلاء القادة ، وكنت ، بناء على الاحداث السابقة التي رويت لي ، متيقنا من نهايتي . وانتزعني من كآبتي فجأة صوت سمعته . اذ أقتربت منا مجموعة من البدو . فاعتراني إثرذلك فزع ورهيب ، حيث لاحظت ، بمجرد أن رفعت رأسي . رؤوس ثلاثة من رفقائي . ورأيت الرابع ، كان

لا يزال على قيد الحياة ، ولكن الدماء كانت تغطي جسده ، لقد كان نفس الشخص الذي لم يكن يحمل بلطة مثلي ، ويدعي بيرنهارد تسابه ، وأصله من مدينة لانداو وأجلسه القائد قربي ، ولكنه وقع الى الوراء في اغماء ، وكان عاجزا عن ا لاجابة حين حاولت أن أتحدث معه . فخشيت على حياته لحظة من الزمن ، ثم تمنيت له الموت . وذلك عندما دحرج اولئك القساة الرؤوس الثلاثة امام اقدامنا واجتمعوا للتشاور في مسالة اتخاذ قرار بشاننا ، حسب ما فهمته من حركاتهم ، لأن الموت سينقذه من أيديهم ، وكنت أنا نفسي مستعدا أن أموت بدله . واستمر اجتماعهم مدة طويلة ، وقهرني التعب ، فغلبني النوم في الهواء الطلق رغم ماكنت أشعر به من خوف . ولا أذكر أني رأيت في حلمي أبدا ما رأيته في تلك الليلة المشؤومة ، كان خيالي المهتاج يريني تارة رأسي فوق رأس خنجر ، ويريني اياه تارة أخرى في أيدى البدو ، يلعبون به كما لعبوا برؤوس رفقائي ، وقد حلت أجسادنا محل الأوتاد .

وفي أثناء ذلك كانت ضحكات القساة ترتفع عالية ، فكنت أرى جسدي يخطو في غمرة القهقهات الحادة نحو رأسه الذي يتدحرج نحوه ، ثم استيقظت وأنا أصرخ .

كان الظلام سائدا ، والهدوء شاملا حولي ، ولم يبق سوى اربعة حراس . وكان رفيقي لا يزال نائما ، وحينما أستيقظ مع طلوع النهار ، كان قد ابتعاد وعيه الكامل وسره جدا أن يجدني على قيد الحياة . واستبشرنا جدا عندما قدما لنا قليلا من الخبز والماء . وما كدنا ننعم بذلك حتى عاد الينا البدو الآخرون وفكوا القيود من أرجلنا دون أن يحرروا أيدينا ، واستمرت بعد ذلك رحلتنا في الجبال بحراسة أثنى عشر رجلا .

وقطعنا أثناء ذلك اليوم مسافة عشرة ساعات ، ونحن عراة حفاة ، معرضون لحرارة الشمس المرهقة وللعديد من لسعات الذباب والحشرات الأخرى ، وكنا نعاني فوق ذلك من حدة الضربات وسوء المعاملة . وهذا مع تجمد أعضائنا بسبب المسافة التي قطعناها في اليوم السابق . وفي الساعة السادسة مساء توقفنا أمام منزل أحد المرابطين ، فالتف حولنا الناس وأخذوا يلغطون بكلمات لم نفهمها في ذلك الحين . وبعد أن أرضوا فضولهم ، نزعت عنا قيودنا وحملنا الى بيت قريب يشبه المغارة . كانت الرحلة الطويلة قد أتعبتنا كثيرا جدا ، فجلسنا فوق ا لارض وأخذنا نضمد أقدامنا .

وبعد قليل جاء رب البيت ، وهو رجل سمين ، ضخم الجثة ، يحمل سبحة في يده ، فتأملنا بدقة ، ثم أمر بأن يحضر لنا قليل من الخبز واللبن . وعقب هذا جلس مع مرافقينا

ودفع لهم مقدارا من المال لا أدري مبلغه . كل ما لاحظناه هو أن بيعنا قد تم ،وحين فكرنا في حياة العبودية المؤبدة التي كنا مقبلين عليها . بعيدين عن الوطن والاحياء أعترتنا الرهبة والثورة . لقد بدأ لنا في تلك اللحظة أن من يعيش أجيرا . بل شحاذا في وطنه . ينعم بسعادة يحسد عليها وكنت على استعداد لدفع الكثير ثمنا لعودتي الى أدغال أمريكا الجنوبية ، حيث لم أفقد الأمل في الحصول على غابة صغيرة وبناء مستقبل محتمل .

وبينما رجع مرافقونا من حيث أتوا ، قام بحراستنا أناس آخرون . وفي صبيحة اليوم التالي اخذنا سيدنا بمرافقة الحراس الى خارج القرية وأرانا بئرا . بدىء العمل فيه . وكان لابد من اتمامه . وشرعنا في العمل في الحين . وكان العمل مرهقا للغاية بسبب التربة الحجرية . ولم نتناول في أثناء ذلك غير خبز الشعير بالماء . وكان علينا أن نتلقى الدفعات والاهانات من كل جانب . الا أن سبابهم لم يكن مؤذيا . لاننا لم نكن نفهم لغتهم . وقد جلبت انتباهنا بصورة خاصة كلمات عربية معينة ، كانوا يرددونها في اليوم الواحد أكثر من مائة مرة . فما من عربي أو بدوي التقى بنا أو رآنا نعمل إلا وطلب منا قائلا : شهدوا ! ولم يكن في استطاعتنا أن نرد عليه . ولذلك كان يقول لنا : قولوا : لااله الا الله محمد رسول الله .

وهذه هي الصيغة التي يعبرون بها ، فيما يبدولي ، عن ايمانهم بالله وبرسالة محمد (ص) (1) وقد سألت فيما بعد مرابطا في قسنطينة عن معنى هذه الكلمات ، فأجابني بأن معناها لايدركه غير الله ، وفي ذلك دليل على مدى ابتعاد لغة هؤلاء القوم عن اللغة العربية ، التي من المرجح أن هذه الصيغة قد ألفت بها (2) .

وحين طلبوا منا أن نردد هذه الكلمات فعلنا ذلك عدة مرات ومع ذلك لم يرضوا عنا لاننا كنا ننطلق بكلمة (قولوا) مع المشهادة بصورة مستمرة ، فكان جزاؤنا الضرب والشتم بالاضافة الى انواع الاهانات الاخرى .

وقضينا أياما عديدة في حفر البئر ، ولكننا لم نعثر على الماء وعندئذ تبينا لسيدنا أننا لا نصلح لهذا العمل ، واقتنع بأنه لا يستطيع أن يستفيد منا في شيء ، فغاب عنا ذات يوم وباعنا لرجل آخر . وفي اليوم التالي حملناتحت الحراسة المشددة الى سيدنا الجديد . وكان الطريق الذي سلكناه يمر بعدد من الجبال والوهاد . ودخلنا في اليوم الثاني سهلا كبيرا ، عرضه 3 أو 4 ساعات . ثم اتجهنا نحو اليسار فجأة . وواصلنا السير في السهل مدة ست ساعات . عدنا بعدها الى الجبال ووصلنا خلال بضع ساعات أخرى الى مكاننا المحدد .

كان يقيم في هذا المكان شيخ القبائل والعرب ابن زعمود الشهير المرهوب الجانب . الذي سمعنا بأعماله ونحن في مدينة الجزائر . وكان استقباله لنا . رغم ما كان يبدو عليه من صرامة وقسوة . ألطف من استقبال سيدنا السابق لنا الى حد ما . وسألنا في الحين باللغة الفرنسية عما اذا كنا فرنسيين أو من أبناء أمة أخرى . وحين أخبرناه بأننا ألمان ، انبسطت أسارير وجهه كثيرا . وأدخلنا خيمته وأزال عنا القيود وطلب منا الجلوس . ثم أمر خادما أسود فأحضر لنا قطعة من الخبز الابيض وشيئا من الحليب ومنحنا اجازة لمدة ثلاثة أيام . لان السفر كان قد أنهك قوانا وسبب لنا مرضا : وفي صبيحة اليوم الرابع قادنا الى القرية وأمرنا بإقامة سور حجري حول بستان واسع . واستغرق منا هذا العمل ثلاثة أسابيع كاملة . وقبل أن ننتهي من ذلك أستبطأ الأمر . وتصور أن في استطاعته أن يكسب منا أكثر ان هو التجأ الى صفقة جديدة . فقد دعانا اليه ذات يوم وأخبرنا بأنه يريد أن يرسلنا الى صديق له . يود أن يتعرف علينا بصفتنا مسيحيين . فكان علينا اذن أن نقوم من جديد برحلة شاقة استغرقت ثلاثة أيام .

لاشك أن كثيرا من قرائي يودون أن أقدم لهم ، قبل أن نودع ابن زعمون ، بعض التفاصيل عن هذا الرجل الذي لعب دو ا تاريخيا جديرا بالاعتبار لذلك أروي ها هنا كل ما عرفته عنه . ابن زعمون رجل متوسط القامة ، يتراوح عمره بين الخمسين والستين ، بيضاوي الوجه . ذونظرة حادة . ولحية سوداء يشوبها بياض . ومظهره في منزله . بصفته عربيا . في منتهى البساطة ، فهو يرتدي سروالا تركيا رفيعا وحائكا وبرنسا . أما في ميدان المعركة فيرتدي سروالا أحمر . وصديريا أحمر أو أخضر . ووشاحا أحمر بحزام مذهب ، علق به مسدسان فضيان وجعبة صغيرة للذخيرة . ويلتمع الى يساره يطغان فضي مقوس . ويضع على رأسه عددا من القلنسوات ، يحيط بها خيط أو عمامة حمراء ، وفوقها مظلة قشية واسعة الحافة ، تحميه من الشمس . وفي بعض الاحيان قبعة من ريش النعام تشبه القبعات الفردية التي يحملها الجنود المتخصصون في حفر الخنادق . كان يسكن مع نسائه منزلين جميلين ، يعلو كلا منهما سقف منحدر على الطريقة الأوربية . ولكنهما يحتويان على طابق واحد وغرف بسيطة . تغطي أرضها حصائر . فوقها زرابي حمراء .

كان ابن زعمون يعيش حياته على نسق واحد . ينهض قبل الساعة الثالثة صباحا . يؤدي الصلاة ، ثم يعتني بماشيته ، وخاصة بجياده الجميلة ، ومن بينها جواد أشهب ، كان أحبها إلى نفسه وأعزها وأغلاها لديه ، فقد أنقذ حياته ، حين طارده قناصة افريقيا

خلال معركة قرب مدينة الجزائر وكادوا أن يأسروه ، ولكن الجواد انطلق به بسرعة ولم يتوقف رغم الجرح الذي أصابه في عنقه إلا بعد أن وصل بسيّده إلى الجبل . وحوالي السّادسة صباحا يتبعنا أنا وزميلي إلى البستان ، ليشرف على أعمالنا ويتحدّث معنا عن أوربّا وعن نظمها السياسية ، ومعاهدها العلمية ، ومشاريعها الزّراعية وغيرها . وكان يحدثنا بدوره عن كل ما يجد في الجزائر ، ولم يكن فقط يعرف مقر الوحدات الفرنسية معرفة دقيقة وكذلك عدد الجنود الذين وصلوا ورحلوا ، والذين أصابهم المرض وماتوا وانما كان يعرف أيضا أدق أسرار السّياسة الفرنسية . وعندما أخبرناه بأن صورته معلقة أمام مدينة الجزائر وأن الحكومة الفرنسية قد خصّصت جائزة بعشرين ألف فرنك لمن يأتيها به ، ضحك وقال :

– أعرف هذا تمام المعرفة ، ولكن لماذا لا يرسل إلى الجنرال المال بنفسه . لو فعل ذلك لسلمت نفسي في الحال !

وقـال مـرة أخـــــرى :

– ان الفرنسيين يبحثون منذ سنوات عن محمد من الذهب الخالص .ولكنهم لم يجدوا له أثرا ، ولا أحد في هذه البلاد يعرف أين دفن ، باستثناء أنا فقط ، وأنا لن أخونه أبدا .

والواقع أني لم اندهش لمعرفته للاسرار الفرنسية ، فلم تكن تمر ساعة واحدة دون أن يصل اليه جواسيس فوق الجياد أو مشيا على الأقدام ، ليقدموا له أخبارا شفوية أو مكتوبة من الجزائر وبجاية . ويتناول طعام الفطور في حوالي العاشرة ، ولكنّه لا يتناوله بمفرده أبدا ، اذ كان يزوره عدد كبير من العرب والقبائل ، يقضون عنده أغلب ساعات النّهار . وكان مدار الحديث ، بناء على ما يتّسم به الكلام من حدّة . في منتهى الأهمّية . وقد يحدث أحيانا أن يأتيه زائر ، فيركب جواده وينصرف معه . ويتغيب عن منزله الرّيفيّ لعدّة أيـــــام .

وكان صديق ابن زعمون ، الذي حملنا إليه عبر جبال تزداد وعورة على الدوام هو مرابط القبائل المشهور أيضا سيدي علي بن عيسى ، الذي تحظى بركته بسمعة كبيرة في الجزائر كلها . ويسكن سفح جرجرة . قمة الأطلس الشّامخة التي تنافس جبال الالب في العلو . وهذا الجبل تغطي نصفه الادغال ، أما النصف الآخر الممتد نحو الشرق فتغطيه الثلوج التي تترك آثارها في المنحدرات فيما بعد . وينحدر في الجنوب والجنوب الغربي انحدارا وعرا ، ويرتبط من الناحية الشرقيّة بسلسلة من الجبال تنخفض عنه ببضع مائات من الأقدام . وفي استطاعة ضياد الوعول أن يصطاد فيه كمية كبيرة منها . وفي شمال جرجرة يمتد من الغرب إلى الشمال منخفض جميل خصب ، تغطى غابات الزيتون مساحة كبيرة منه ، ويشقه جدول

صاف ، تدير مياهه عدد من الطواحين . وفي زاوية هذا المنخفض تقع دار علي بن عيسى ، وهي بناية عادية مربعة ، يحيط بها رحبة وسور وتقابلها قبتة التي يؤدي فيها صلاته مع أتباعه ومريديه .


وعند وصولنا التف بنا جمع غفير من الناس ، واقتربوا منا في صخب وبهجة ، ولو لم يصدر الولي اشارة من سبحته ، تراجعوا بعدها في هدوء وراحوا ينتظرون نهاية المشهد عن بعد ، لكان من الممكن أن يرجمونا بالحجارة . وادخلنا الولي إلى دهليز قرابته وأمر بأن يقدم لنا قليل من الخبز والزيت لنسترد قوانا . وكان منظر هذا الشيخ التقي الجليل قد ترك في نفوسنا منذ أول وهلة أثرا بالغا ، وأحيا أملنا في النجاة بعد أن يئسنا منها . وكانت أوضاعنا بالفعل حسنة للغاية . فلم يطلب منا القيام بعمل مرهق . بل كان علينا فقط أن نحرس البقر يوما بعد آخر ، ونقدم العلف في المساء للجياد والبغال ونجلب الحطب الى المطبخ . وكل ما كان يزعجنا هو محاولة الشيخ حملنا على اعتناق الدين الإسلامي ، إذ كان علينا أن نحضر بعد الانتهاء من العمل الاجتماعات المسائيّة التي كان يعقدها أمام مسجده مع جيرانه (وكان من بينهم عدد كبير من اليهود . وهم يسكنون قرية كاملة غير بعيدة) ويتحدث معهم حول المسائل التّجارية والاقتصادية . والممتلكات والمؤسّسات الفرنسية . ولم نكن أنا ورفيقي في الشقاء نفهم من ذلك شيئا لأن العرب والقبائل يتكلمون فيما بينهم بسرعة كبيرة ، وتخرج الحروف الساكنة كالشخير من حلوقهم !

كان الشّيخ يستقبلنا وحدنا في ساعات محددة من النّهار . ويعلمنا النطق بالشهادة بصورة صحيحة وقراءة الفاتحة وترديدها بعده . وكان من الصعب علينا أن نحفظها لأننا لم نكن نفهم منها شيئا . لذلك أخذت حبرا وريشة وكتبتها بالحروف الالمانية فحفظناها خلال ساعة من الزمن . وذهبنا الى سيدنا ورددناها أمامه كالببغاء فاندهش لذلك كثيرا . وانتشر خبرنا في المنطقة كلها ، وصار منذ ذلك الحين يمنحنا مودته الحميمة ويقدم لنا طعاما أجود . ثم علمنا فيما بعد الصيغ اللازمة للوضوء واداء الصلاة نفسها . ولم تبق لنا الا عملية رئيسية ، يتميز بها أعلان الاسلام الرسمي ، وهي عملية الختان ، وهو مالم نقبل به بأي شكل من الاشكال . وحين سألنا عن ذلك لأول مرة أجبناه جوابا ملتويّا دون أن نرفض صراحة ، فأعلن عندئذ أنه لا يريد على أية حال ارغامنا عليه . لأن تعاليم دينه لا تسمح له بذلك . غير أنه يأسف لكونه لايستطيع أن يحتفظ بنا في منزله إن نحن استمررنا في رفضنا . ومر على إقامتنا هناك شهر ونصف وقطعنا شوطا حسنا في تعلم اللغة العربية .(الا أننا لم نكن قد وصلنا بعد في فهمنا لروعة الاسلام الى درجة ، تحملنا على التخلي عن تعاليم المسيحية المقدسة . وعندما نفد صبره ، أخبرنا

والدموع في عينيه ، أنه لايجوز له ، مادمنا لانرغب في الدخول في الاسلام ، أن يأوينا في منزله بصفتنا مسيحيين لمدة اطول ، ولم يبق له الا ان يضعنا تحت تصرف باي قسنطينة ، الذي قد يأمر بقطع رؤوسنا . ولكن هذا التهديد لم يحل بيننا وبين الثبات على موقفنا ، وفضلنا انتظار ما سيحدث لنا في قسنطينة . فتقبل الشيخ الجليل ردنا برحابة صدر وبتسامح كبير ، فلم يسخط علينا ، بل أرسلنا في الحين الى قسنطينة تحت الحراسة .

كان سيدي علي بن عيسى في ذلك الحين عجوزا تجاوز الستين من عمره ، وهو قصير القامة ذووجه طويل مستدير . ولحية رمادية بيضاء . ومظهر مهيب . وكان لباسه يشتمل على سروال أبيض أو قندورة بيضاء مصنوعة من القطن . وحائك تتخلله خيوط حريرية . وبرنس . وقلما كان يحمل عمامة ، ويرتدى عادة عصابة بيضاء صوفية أوشاشية حمراء ، يغطيها الحائك . وكان له أربع نساء ، ويعيش مع أسرته الكبيرة في سلام ووئام . ويزوده رعاياه بالفواكه والماشية مجانا رغم ثرائه . ولم يكن يهتم بالتدابير المنزلية ، وانما كان يكل أمر المحافظة على مساكنه وقطعانه ، وجمع الاجور . والشؤون المنزلية والتجاريه لصهره سيدي محمد . الذي كان هو الآخر محاربا قديرا . وكان سيدي على بن عيسى يذهب الى الاسواق كلها ، ليقوم بدور الحكم في جميع القضايا التجارية . وكانت لكلماته قوة غير عادية فما من كلمة تخرج من فمه الا ويعتبرها اتباعه كلمة مقدسة . ولم يكن يشارك في المعارك . ولكن الالآف كانت تلبي امره وتندفع في حماس الى أرض المعركة .

وأثناء اقامتي عنده دعى الناس ذات يوم وعلى حين غرة لمهاجمة الفرنسيين في مدينة بجاية ، فشاهدت أنهم . في سبيل ايصال الدعوة الى بقية المكان . لم يكونوا في حاجة الى استعمال الطنبور واللجوء الى دقات الطبول . فقد وصل رسول يحمل رسالة الى سيدنا ، اخبر فيها بموعد تحرك القوات المحاربة ، وفي الساعة الثامنة صباحا حين كان الهدوء شاملا والناس مشغولين بأعمالهم ، اصدر أوامره بالسير للبعض منهم ، وخلال دقيقتين كان هؤلاء قد تقلدوا أسلحتهم ، وامتطوا جيادهم ، واندفعوا في سرعة البرق نحو أعلى قمة الجبل ، وراحوا يصرخون بصوت عال جداً ، سمع على مسافة ساعتين ، وقد فهم الناس عن بعد معنى تلك الصرخة ، فصعدوا بدورهم فوق الجبل ، ليرددوا الصرخة نفسها ، فتلقفها آخرون ووصلوها بدورهم الى من يليهم . ولم يكد يمضي نصف ساعة حتى امتلأت المنطقة بالمحاربين ما بين راكبين وراجلين وتحركت جموعهم في الحال ، يتقدمها أعيان المنطقة ، ولم تعد الا بعد ثلاثة أيام دون أن تحقق هدفا فيما بدا لي ، إذ أني لم أشاهد أسرى ولا غنائم ، الا أن ما لاحظته من كلامهم كان يدل على أن أمرا جليلاً قد حدث .



الفصل الثالث

السفر إلى قسنطينة - الحضر - حفر الخزانة - قسوة كرغلي

لقد أظهر لي عمل ابن عيسى الأخير ، وكان عملا يتنافى مع طبيعته ، الاسلام في ضوء اسطع بكثير مما فعلته كل التعاليم التي أراد أن يطبعها في أذهاننا ، ذلك أن قسوة أهالي المنطقة ، وما هم بشعب سافل عادة ، ثم قسوة وليهم ، لا يمكن أن أعيدها الا الى تأثير دينهم الذي يأمرهم بمطاردتنا ومحاولة ابادتنا . ولكن ما هو نوع المصير الذي ينتظرنا ، ان نحن وقعنا في يد شعب ، تزيد طبيعته من فظاعة تعصبه ؟ لقد حدثنا الأهالي عن شعب ، من هذا النوع ، فذكروا لنا حب سكان الشرق الجزائري للسلب والنهب ، وكنا نمر بمنطقتهم ونحن في طريقنا الى قسنطينة .

وسرنا في جبال القبائل سبعة أيام كاملة ، وفي اليوم الثامن قطعنا آخر جبل ، وهو الحد الفاصل بينهم وبين الحضر ، كان سيدي علي بن عيسى قد أهدى برنسا وقندورة لنا عند الوداع ، لأن عرينا قد أثار عاطفة الشفقة في قلبه الانساني ، ولكن ما أن سلمنا مرافقونا الى الحضر ، وقطعنا معهم مسافة حتى أخذ هؤلاء يعاملوننا معاملة سيّئة للغاية ، فنزعوا عنا ثيابنا كلها تقريبا ، وهم يدفعوننا طورًا ويضربوننا طورًا آخر . كنا في شهر جوان ، وكانت شمس نوميديا تحرق رؤوسنا وأعناقنا العارية ، وكان الذباب الخبيث ، الذي كنا قد تعرفنا عليه سابقا ، يتجمع في السهل بكثرة ، ويعذبنا بلسعاته الحادّة . ومما زاد في آلامنا أننا لم نلمح على امتداد بصرنا شجرا أو دغلا ، يوفر لنا لبضع دقائق قليلا من الظل ، وحين أتصور الآن ذلك العذاب يصعب علي أن أدرك كيف تحمله جسمي النحيل : كنت أحس بالحريق فوقي وتحتي ، كأني في جحيم . وكان دمي يغلي ، وفي أذني دوي ، ورأسي يلتهب ، وكانت قدماي تدميان ، بينما كان

جسمي الأعلى يشكل بطاقة نموذجيّة للسعات والأورام . ومع ذلك فان هذه الالآم لم تكن شيئا بالنسبة للآلام النفسية والخوف من أن نعذب حتى الموت في قسنطينة ، فقد كان مرافقونا يحاولون أن يصوروا لنا ذلك في تشف عن طريق الكلمات والحركات . ولم تكن تلك آلالام شيئا أيضا بالنسبة للاهانات والشتائم التي كانت تصب علينا من كل جهة . فقد كان الشعب يتجمع حولنا كلما مررنا بقرية من القرى فيهتف أحدهم :

– نصارى ، ومن الفرنسيين ! اقطعوا رؤوسهم ! اذبحوهم !

ويهجمون علينا بكل ما تصل اليه أيديهم من هراوي ، ومناجل وخناجر وسيوف ليقضوا علينا ، ولم ننج منهم الا بفضل جشع حراسنا الذين كانوا يأملون في الحصول على مكافأة مالية كبيرة من الباي نظير تسليمنا اليه . وكان تصور هؤلاء الناس لهيئة مسيحي ، يدل على ما وصلوا اليه من قسوة ووحشية ، فعندها توقفنا للاستراحة في احدى القرى ، تكرموا علينا بالبحث عنا أولا بين جياد حراسنا وبغالهم ، ولما لم يجدونا هناك صرخوا :

– ايــن الكفـــار ؟

وحين جاءهم الجواب بأننا تبعنا عربة النقل لأننا كنا مربوطين اليها ، وهجموا علينا باسلحتهم . اني لا أكاد أجد كلمات اعبر بها عن مشاعري نحو هذه الحوادث وأمثالها . ويروى أن تعساء وقعوا في شباك بعض الأشرار فعلقوهم من ارجلهم ، وضربوهم بالسياط الى أن أصابهم السعر وخرج من أفواههم لعاب استعملوه بمثابة السم القاتل . وكان هذا وضعي تقريبا خلال الرحلة كلها . .

عندما تركنا القرية المذكورة ، حرص مرافقونا على تجنب بقية القرى ، حتى لا يضيع منهم الثمن المأمول ان نحن قتلنا ، وهكذا تنعمنا بالهدوء يوما كاملا الا ان وضعيتنا كانت في اليوم التالي أسوأ وأكثر رعبا . فقد حتمت علينا وعورة المنطقة أن تسلك طريقا . يمر بخمس أو ست قرى ، وما كاد السكان يسمعون بمرور أسرى مسيحيين حتى خرجت النسوة ، وهن نصف عرايا ، من جميع الاكواخ ، وهجمن علينا بالمناجل والخناجر . ومن حسن حظنا أن أزواجهن لم يكونوا في البيت ، فقد كانوا يحصدون القمح في مكان بعيد عن مساكنهم . فاذا كانت النساء ، اللواتي يوصفن عادة بأنهن أكثر حنانا من الرجال ، في هذه الدرجة من القسوة فكيف سيكون أزواجهن اذن ؟ لقد كن يطالبن برؤوسنا في غضب شديد واذاهن لم يمكن من ذلك فانهن سيهاجمن الحراس . وعندئذ صعب على الحراس أن يجدوا مخرجا مما كانوا فيه ولم يبق لهم في النهاية الا أن يعلنوا أننا تخلينا عن ديننا . ولكن هذه الحيلة لم تنطل عليهن

مع أنها كانت مناسبة لما في طبيعتهن من حياء وحشمة ، فقد هدأت الضجة لحظة ، وسرت بينهن همهمة . ثم صرخت إحداهن بصوت عال :

— مسلمان ؟ طيب . اذا كانا كذلك فهما مطهران ، سوف نتأكد من ذلك في الحين !

وصاحب هذه الكلمات أصوات الاستحسان ، وارتفت الخناجر والمناجل – وعقب ذلك مشهد ، أسدل فوقه ستارا حتى لا يعتبريني الخجل أمام ذوي الاخلاق الحميدة أيضا ! ونشأ عن خيبة الأمل غضب لا حد له . ونحن يطالبن في الحاح برؤوسنا أو برؤوس حراسنا . وسددن الطريق في وجوههم ، بينما أسرع بعضهن ، فيما ذكرن ، لاحضار رجالهن . وبعد بضع دقائق رأيناهن يعدن ، ومعهن ، عوض رجالهن ، ما يزيد عن ثلاثة آلاف امرأة . وكان حراسنا عاجزين طبعا عن مقاومتهن ، ولم ينقذنا في النهاية من هذا الموقف الحرج الا القائد الذي خشي غضب الباي ، فرآى أن من واجبه أن يمكننا من المرور بسلام . وكانت شتائم أولائك النسوة ولعناتهن تصل الى اسماعنا عبر مسافة كبيرة .

يجدر بي أن أروي طريفة أخرى ، وقعت لنا في سهل سطيف في الجنوب الشرقي من مدينة زمورة ، حين قضينا ليلتنا في قرية هناك . فقد قادنا الفلاحون الى أطلال مجاورة يطلقون عليها اسم سلطان سطيف ، وكانت تتكون من حائط قديم مربع . يبلغ ارتفاعه حوالي 30 قدما ، وبرج منفصل عنه يتراوح علوه بين عشرين وثلاثين قدما . وكان بهذا البرج عدد من الحجارةالمربعة ، تتضمن نقوشا لاتينية ، أصبح من المتعذر قراءتها . وقد ادعى الفلاحون أن هناك ، في الجانب الخارجي من السور ، مكانا ، فوقه صفيحة يمكن رفعها عن الأرض كما يرفع الغطاء ، يوجد به كنز لايستطيع رفعه مسلم ، وانما يستطيع رفعه مسيحي ، وسوف يسمح له المسيحيون الذين دفنوا هنا قديما باكتشافه وامتلاكه . ولذلك حملوا معهم معاول وآلات أخرى وأمرونا بالحفر في المكان المحدد مدة طويلة . ولما لم نجد شيئا اتهمونا بأننا لم نرد اخبارهم بوجود الكنز ، وأن كفرنا هو السبب في ذلك !

وتراءت لنا أخيرا صخور قسنطينة ، وكان لابد أن نصل في آخر المطاف الى المدينة ، فقد كنا على وشك الانهيار ، ولكننا لم نعرف الراحة حتى بعد وصولنا الى هدفنا . وكلما اقتربنا من المدينة ازداد احساسنا بالآلام التي تنتظرنا ، وكان الخوف والكآبة قد تمكنا منا الى درجة أننا كنا عاجزين عن الجواب ، عندما التقينا بجندي (كرغلي من حرس الباي) وسألنا من نكون . ولما أعاد سؤاله أجبنا في همهمة بأننا فرنسيان . وما كدنا ننطق بذلك حتى سل سيفه ليقتلنا ، وقال للحرّاس الذين اعترضوا على تصرفه بصوت جاف مضحك :

– اتركوهما معي ! يمكنكم أن توفروا على أنفسكم مشقّة الطّريق ، فسوف أسلم الرأسين بنفســي الى البـــــاي .

وهكذا مسك زميلي دون تردد ، وقد شجعه على ذلك خوف الحضر من الاتراك وأقربأنهم الكراغلة ، وطرحه أرضا ، وآمر الفلاحين بوضع أنشوطة حول عنقي في أثناء ذلك ، وهو ما حدث في الحين . وحين هم بذبحه بواسطة يطغانه ، ارتفع صوت طالبا منه أن يتريث قليلا . واقترب رجل فوق حصانه ، يرتدي لباسا أبيض ، وخاطب الجندي باللغة التركية ، فاطلق سراحنا بعدها وحملنا الى المدينة .

الفصل الرابع

الاستقبال في قسنطينة الباشحبا علي بن عيسى - عين سحرية - تفاؤل الحاج أحمد - الاستنطاق والحكم

هل كانت الشفقة هي التي حملت العربـي على انقاذنا أم أن واجبه هو الذي دفعه الى منع الجندي من الاعتداء على حقوق سيده ؟ اني لم استطع معرفة ذلك ابدا ، الا انه من المؤكد ان العناية الالهية كان لها دخل في ذلك ، اذ سبق لها أن انقذتنا من أبلغ الاخطار.

لقد كان من المنتظر أن نتعرض لنفس الخطر لدى أية خطوة نخطوها ، ومن ثم أشار ذلك الرجل على حراسنا بأن يخبروا البا شحمبا ، أو حاكم قسنطينة العسكرى ، بوصولنا قبل الدخول الى المدينة . فلم يتجاسر هذا على أن يتركنا تحت رحمة غضب الشعب وأرسل أربعين جنديا لمرافقتنا الى قصره فواصلنا سيرنا ، وكان علينا أن نصعد في الجانب الذي دخلنا منه المدينة جبلا عاليا الى حد ما ، ولكن ذلك لم يمنع الأهالى من الأسراع الى سفح الجبل لملاقاتنا . واذا استثنينا صراخهم الرهيب ، فان موكبنا قد وصل باب المدينة بسلام . وهناك أخذنا الجنود بينهم ، لأنهم كانوا يدركون ما يتطلب ايصالنا الى الحاكم أحياء من جهد ومشقة . وكانوا قد ربطوا يدي كل منا الى يدي الآخر، فسرنا عبر الزحام مثل ضحيتين لا تدريان الى أين تحملان ولا ما سيحدث لهما ، وكان غضب القسنطينيين مريعا ، فأصبحت المدينة كلها في حالة تأهب ، وتعالى الصياح في جميع الشوارع :

— نصارى ، فرنسيس !

وتقاطرت الآلاف وأخذت تصيح :

— اقطعوا رؤوسهم ، أحرقوهم ! سلموهم إلينا !

ودافع عنا الجنود معرضين حياتهم للخطر ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بدافع انساني ، انما لعلوه تنفيذا لأوامر الباشحمبا الاستبدادية . فكانوا يضربون الجموع بسيوفهم ذات اليمين وذات

الشمال ، في الوقت التي كانت هي تحاول أن تنتقم منا ومنهم بواسطة رمينا بالحجارة . ولم تتوقف عن مطاردتنا إلى أن وصلنا إلى مركز الحرس الرئيسي ، وقد ألحقت بنا جروح وأورام .

وقفنا بعد ذلك أمام الباشحمبا ، علي بن عيسى وهو قبائلي ، يتراوح عمره بين 58 و 60 . له وجه طويل ولحية خفيفة بيضاء . وبعد ان امر الحرس بتهدئة الجموع ، راح يتأملنا لمدة طويلة ، ثم أرسلنا مع حرس جديد وزنجي . كان طوال الطرق يهتف بعبارات لم تكن مفهومة بالنسبة لنا ، إلى سجننا .

واستقبلنا مكان قذر مظلم ، لا يدخله النور ولا الهواء ، وقفل علينا الباب في الحين . وجلسنا في الظلام من العاشرة صباحا الى الخامسة مساء ، ولم يخطر ببال أحد منهم ان يقدم لنا قليلا من الخبز ولم يفتح الباب في النهاية إلا لأرضاء فضول الناس ، الذين ألحوا على قائد الدار (ويدعى أيضا مولى البلاد ، لانه هو الذي يفصل في جميع القضايا المدنية) الحاج محمود . فلم يستطع أخيرا إلا أن يخضع لرغبتهم والحاحهم . وبما أن ضيق السجن لم يتسع لجمعهم ، فقد تقدموا واحدا بعد الآخر الى فتحة الباب لينظروا الينا . وكان الدّاخلون والخارجون يتقدّمون ويتسابقون في ضجر ليتمكّنوا من رؤيتنا ، وكأنّنا حيوانات عجيبة ، لا يشبهها إلا ما يجده المرء في السّوق السنوية الألمانية ، ولو أن الجندي الحارس كان يطلب من كل شخص مبلغا من المال لكان التشبيه دقيقا . ولم يكن لنا ، نحن الإثنين موضوع هذه المسرَحيّة ، مزاج يسمح لنا طبعا باستحضار مثل هذا التشبيه . كنا نحسّ حيال هذا المشهد بشقاء لا حدّ له .

لقد نجونا حقّا من سوء المعاملات الجسديّة ، غير أن اللعنات كانت تصب علينا بمثابة التحيّة من طرف المتقدّمين نحونا ؛ وحين تصدر عنّا دهشة ، يغمروننا بسيل من الشتائم ، ويبصقون في وجوهنا عند الذهاب ، واستمرّ ذلك أربع ساعات ، الأمر الذي أثار سخطنا . وقدم لنا الطعام في السّاعة التاسعة ليلا ، فالتهمنا الخبز الأسود والماء كالحيوان الجائع . وقضينا ثمانية أيام في هذا السجن ، طعامنا الخبز والماء ، ورغم أننا كنا مرضى ، فإننا لم يقدم لنا أي لباس ، نستر به عرينا ، وكان فراشنا الحجارة الصلبة .

كان الحاكم قد أخبر الباي في اثناء ذلك بوصولنا ، فأرسلنا الى المعسكر بناءا على الأمر الذي تلقاه منه ، فوصلنا إليه بعد ثلاثة ايام وشاهدنا في الطّريق بغالاً كثيرة ، لم يكن على ظهورها سوَى 254 رأسا ، أرسلت إلى قسنطينة ليشاهدها النّاس . وعلى بعد مائة متر من ذلك وجدنا أيضا عددا من الجثث ، كان علينا أن نمرّ فوقها ، وكان بعضها لم يتعفن بعد ، أما بعضها الآخر فافترسته بنات آوى . ولا شك أن الباي قد وضع ذلك في طريقنا عمدًا ، واعترف أنّه قد حقق هدفه من ناحية الأثر الذي أراد أن يحدثه في نفوسنا .

كان خبر وصولنا قد سبقنا إلى المعسكر وأثار موجة من الفرح ، فاستقبلتنا الجموع صائحة :

الموت للكفّـــار !

ورافقتنا تلك الجموع حتّى موقع خيمة الطّاغية ، وأمرنا بالجلوس فوق الأرض على بعد 20 مترا من الخيمة ، وقد وقف إلى جانب الباب 24 مملوكا ، وهم في الواقع كراغلة ، تجري في عروقهم الدّماء التركية والعربية ، وسيافان (وللسياف منزلة سامية عند هؤلاء القساة) وكان خلفنا عدد لا يحصى من الجنود والفلاّحين ، الذين عبروا عن ضجرهم بإثارة الضجّة والصّخب . وظهر الباي أخيرا ، وفجاة عمّ صمت كصمت الموتى . وقبل أن أنتقل إلى الحديث عن التّحقيق الذي أجراه معنا يبدولي أنه من المناسب أن أقطع القصّة هنا لأحدث القاريء عن نسب الباي ، وشخصيته ومظهره .

هو أحمد بن محمد ، وكان أبوه قد خنق بأمر من داي الجزائر بسبب قسوته ، وجده أحمد ، باي قسنطينة السابق ، من الكراغلة . وقد هربت به أمه وهو رضيع الى الصحراء لتنقذه من مصير ابيه . وكان اخوها ابن قانة شيخ قبيلة عربية عظيمة بالصحراء وبمساعدته استطاع احمد ، الذي نشا في الصحراء نشاة وحشية ، ان يصل الى منصب خليفة بقسنطينة ويسترجع كنوز ابيه . وقد نفي عدة مرات بسبب قسوته (منها ذهابه الى مكة واكتسابه للقب الحاج) ولكنه عرف دائما كيف يستعيد مركزه ويستولي بالتالي على منصب ابراهيم ، باي قسنطينة المعزول . وكلما ازدادت قوته ازدادت معها وحشيته ، وكاد في سنة 1830 أن يذهب ضحية مآمرة دبرها شيوخه ، ولكن حصار الجزائر حال دون اتمامها . وقاوم الفرنسيين في الجزائر مقاومة شديدة ، وخلال تقسيم المدينة ، رجع إلى بايلكه مع حاشية كبيرة وغنائم كثيرة ، وقد علت سمعته وقويت هيبته . وتعرض حكمه مرة أخرى للخطر ، وكان سببه الاتراك ، الذين استخدمهم ، وحين كان وشك التخلي عن منصبه للباي ، الذي اختاره الاتراك ، استطاع بفضل الكراغلة ، الذين بقوا على اخلاصهم له ، أن يكسب مساندة الأهالى ويتغلب على الثوار ، فضرب رأس الباي ، وحل الميليشيا التركية باستثناء حوالي 30 رجلا هذه تقريبا هي الاحداث التي وقعت قبل رحولي الى قسنطينة .

وأحمد باي رجل متوسط القامة ، ضخم الجثة ، لم يتجاوز الأربعين من عمره بعد ، حسب ما استنتجته من لحيته ، التي كانت لا تزال سوداء ، في حين ان سكان المدينة تشيب لحاهم وهم في سن الأربعين . ان هذه اللحية التي تصل الى منتصف صدره ، والعينين الكبيرتين الغائرتين ، والصرامة الحادة تخلع عليه مظهر الطاغية . ولا يحرك ملامحه ليضحك

أبدا ، وحتى حينما يضحك فان دخيلته لا تعرف الامن خلال صوته ، ويتكلم بطلاقة وبصوت واضح جدا ، ويسير ببطء وأبهة ، ولباسه يلتمع بالذهب ، أما رفاقه الذين لا يفارقونه أبدا فهم مسدسان وسيف ذو غمد ذهبي .

كان قد جلس امام الخيمة فوق مخدة حمراء ، فقدم لها مملوك ، قائد الشيبوك ، سعوطا حاداً ، كما قدم له القهواجي فنجان قهوة ، وكان عليه أن يذوقها قبل أن يقدمها له . وبعد أن تأملنا لحظات ، دعى ترجمانه ، وهو يهودي يدعى هارون ، وأمره بأن يوجه الينا الأسئلة التالية : كيف ألقي القبض علينا ، وما هي جنسيتنا ، وهل لدينا في أوطاننا آباء واخوة وزوجة واطفال ؟ وبعد ان اجبنا على هذه الاسئلة التي وجهت الينا باللغة الفرنسية ، وكان جواب السؤال الأخير بالنفي ، أشار بيده ، فمسكنا الجلاد وقادنا خلف الخيمة وكان الجواب الأخير الذي لم يكن مطابقا للحقيقة ، مبنيا على نصيحة اسباني عجوز ، عاش في قسنطينة خمسا وأربعين سنة ، وكان قد زارنا في السجن . .

لقد كان علينا ان نتجنب اي جواب ينم عن تعلقنا بوطننا ، اذا كان يهمنا ان نبقى على قيد الحياة . كان هذا الرجل الانساني قد أسر مع والديه قرب مدينة الجزائر ، وبعد أن أعدم الداي والديه بيع هو عبدا ونقل الى قسنطينة . فقضى الشقي هنا عدة سنوات في العبودية ، فلما رآى أنه من المستحيل عليه أن يستعيد حريته مرة أخرى اعتنق الاسلام ، ولكن ذلك لم يحفظه من العيش في ظروف مؤلمة .

كان الجميع مبتهجين لتنفيذ حكم الاعدام فينا ، ولكن الباي تردد بعد اصدار الحكم علينا لا لأن حيلتنا غيرت رأيه في قضية اعدامنا ، وانما لانه اراد أن يتكرم علينا بميتة خاصة ، كان عليه أن يفكر فيها ، لذلك قيدت أقدامنا في غضون ذلك ، وطرحنا أرضا في الشمس ، وحتى لا نتأذى من ذلك أمر بان يقدم لنا خبز أسود وان نسقى ماء من القربة . وقضينا ثمان واربعين ساعة ، تخللتها ضربات واهانات مريعة دون أن يتغير وضعنا ، واخبرنا الجلاد بأن الباي سيأمر في اليوم الثالث باعدامنا خارج المعسكر . فحمدنا الله وعزينا انفسنا بالأمل في وضع حد لآلامنا . وجاءنا في مساء اليوم التالي مملوك ، وقد ارتسمت علامات الرحمة والعطف على ملامحه ، وأخبرنا بلهجة حزينة بأن قرارا قد اتخذ بشأننا ، وهو أن نطرح أمام كلاب الباي تمزقنا ، وكان له كثير من هذه الكلاب . لقد فاقت هذه القسوة كل توقعاتنا . واخرجنا الفزع من هذا الموت الاليم ، فرجونا المملوك رجاء حارا طالبين منه أن يحاول اقناع سيده بقطع رؤوسنا ، فابتعد عنا متأثرا ، ولكنه عاد بعد ساعة ليخبرنا بأن قرار الباي لا رجوع فيه . وعندئذ

استبدبنا اليأس ، فتوجهنا الى الله وطلبنا منه ان يسرع بهذه الميته المريعة ، واضطجعنا فوق الارض لننام . ومع ذلك فان مشيئة الله لا يسبر غورها !

الفصل الخامس

العفو عنا - اثنا عشر ألف رأس - مشهد البيعة - المرض الخطير رفقاء المصير - عواقب محاولة الفرار

بعد أن حاولت النوم مدة طويلة عبثا ، لأن الخوف وضجة المعسكر قد طرداه عني ، عاد المملوك في الليل مرة أخرى وحمل الينا خبرا سارا ، وهو أنه استطاع بعد الرجاء وضرب الأمثلة ، وبعد وقوع حادثة معينة ، أن يقنع الباي بالعفو عنا ، وخاصة عندما أخبره بأن هناك اعمالا قذرة جدا ، لاتحتمل التأخير ولا يجوز أن يمارسها المسلمون . وهكذا نقلنا في صبيحة اليوم التالي الى قسنطينة للقيام بهذه الاعمال . فاستطعنا من جديد أن نتنفس بحرية ، وداهمنا النوم في الحين لينسينا لبضع ساعات كل ما خبرناه من بلاء .

وعند الفجر أركبونا فوق بغلين — فقد كان أحمد باي يخشى فرارنا رغم ما كنا نعانيه من ضعف ومرض — وربطوا فخذينا الى بعضهما بعض بواسطة سلسلة . وكنا نسير ببطء ، ولم نتعرض خلال الطريق لاهانة تستحق الذكر ، لان الباي كان قد منع ذلك ، ولكننا تعرضنا في قسنطينة نفسها لاهانات جديدة ، لأن أمر الباي لم يعرف فيها . فعوض ان ينزعوا السلسلة عن ارجلنا وينزلونا عن ظهر البغلين ، أناموا على ظهورنا فوقهما وركلونا وبصقوا علينا ، الا أن قائد الدار دافع عنا وأخبر الناس بالعفو عنا .

ووضعنا سجينين في غرفة كبيرة مظلمة بقصر الباي القديم ، وكان منظرها مرعبا لما فيها من رطوبة وهوام كثيرة ، وغلق علينا الباب . فتمددنا فوق الارض الباردة ، وقد نهكنا الجوع والضعف . ومكثنا على هذه الحالة ثلاثة أيام وثلاث ليال ، لم نر خلالها سوى حارس عجوز ، كان يقدم لكل منا كل صباح قطعتين من الخبز ، لا تزيد الواحدة منها على أربعين غراما ، وجرة ماء ، وهو يشتمنا ويلعننا.كان في السابق يشتغل قرصانا في الجزائر . وفي اليوم الرابع حضر عدد من

الحراس ، وذهبوا بنا إلى قائد الدار ، فاخبرنا بأوامر الباي المتعلقة بالعمل الذي كان علينا القيام بــه .

لم يكن يستر أجسادنا سوى برنس قديم ، ولم يكن لدينا حذاء ولا غطاء للرأس ، كما أننا لم نكن نأمل في الحصول على ذلك . ونقلنا ثمانية حراس ، وهم نوع من الشرطة السريـة ، إلى القلعة . وتقاطرت الجماهير نحونا ، ولكنها اكتفت بتوجيه الشتائم الينا . وكان العمل الذي أمرنا بالقيام به يتمثل في اخلاء بيت كبير من أكداس الجماجم البيضاء ، التي بلغ عددها اثنى عشر ألف جمجمة ، وتعود الى معركة جرت مع باي تونس وبقيت في مكانها ، وكان لابد من دفنها خارج المدينة (11) وقدمت لكل منا قفة ، وبدأنا العمل في الحين.وكان اليوم الأول اسوأ يوم مر بنا،إذ كان علينا أن نقطع مسافة ثلاثة آلاف خطوة قبل الوصول الى الحفرة ، ومـــع أن الحراس كانوا يرافقوننا في كل مرة ، فانه كان من المستحيل علينا تقريبا إيجاد طريق للمرور عبر زحمة الاطفال والفلاحين المتسارعين نحونا ، وذلك ما فرض على قائد الدار أن يقدم لنـا حرسا عسكريا زيادة على الحراس الثمانية لئلا يعوقنا الناس عن العمل .

كانت ساعات العمل تستمر من الخامسة صباحا إلى الحادية عشرة ، يقدم لنا أحد الحراس بعدها الوجبة المعتادة المتكونة من الخبز والماء . وبعد أن نستريح ساعة نعود الى العمـل في الثانية عشرة ونستمر فيه إلى السادسة مساء ، ثم نقاد الى السجن من جديد ، حيث نتناول نصف الخبز الباقي ، لأنه لم يكن يقدم لنا شيء في المساء .

واستمر هذا العمل ، الذي كان يستبدل أحيانا ببعض الاعمال الصغيرة ، من 6 جويلية الى 28 اغسطس سنة 1832 . وما كدنا ننتهي منه ، حتى كان في انتظارنا عمل آخر لا يقل عنه بشاعة . كانت قسنطينة في ذلك الحين تستحق عن جدارة اسم (المزبلة) الذي أطلقـه عليها العرب . فلم تكن الأوساخ قبل مجيئنا تترك في الشوارع فحسب ، وانما كانت جثث الحيوانات تلقى ايضا في أغلب الأحيان في الازقة ، فتسبب روائح وبيئة . ولكي ننظف هذه الحظيرة المهملة ، قدم لنا بغلان بزمبيلين ، لتحمل فوقهما الأوساخ الى خارج المدينة ، وما كان في وسع هرقليس أن ينهي عمله حقا بصورة أسرع من انهائنا لعملنا دون مساعدة النهــــر ، وكان علينا أيضا أن نسرع في ذلك ، لأن الباي كان قد أمر بازالة الخيام في 10 ديسمبر سنــة 1832 وإقامتها على بعد مسافة ساعتين من قسنطينة ليتمكن من دخولها بسرعة . فركب كبار الموظفين وأعيان المواطنين للقائه هناك . وكان عليهم أن ينزلوا عن جيادهم على بعد مائة خطوة ، وينحنوا أمامه وأيديهم معقودة فوق صدورهم ،ثم يقبلوا عمامته اقرارا بالاعتراف به والطاعة له .

وبينما كان الشعب العادي يقبل ظهر يده وبطنها ، كان على اليهودي أن يكتفي بتقبيل يسراه .

وهذه البيعة لايؤديها طبعا أحد من قلبه ، فالخوف هو الذي يفرضها على الناس . فما من مرة يقترب فيها الباي من المدينة الا ويحس الجميع بالخوف والهلع ، ولا يجرؤ أحد على مغادرة بيته ، فتخلو الشوارع من المارة . وما أن يغادر المدينة حتى تعود البهجة الى النفوس ، والشجاعة الى القلوب ، ويخرج الجميع الى الشوارع .

وفي يوم 12 ديسمبر دخل الباي المدينة في الثامنة صباحا ، وكان يرافقه جوقه الموسيقي (ولا تزيد الالات الموسيقية عن الطبول الكبيرة والزرنات والشبابات) ومماليكه وجنوده ، فحياه الشعب بهتافاته ، ورحبت به كذلك سبع طلقات مدفعية . أما نحن فقد هيأت لنا الضجة ، التي سببها ازدحام الناس ، أياما من الراحة ، أتيح لنا خلالها أن نفكر في مصيرنا بصورة جادية . كنا قد نجونا من الموت ، ولكن من كان في مقدوره ياترى أن يضمن لنا أن مزاج الداي لن يتغير فجأة فيكون في ذلك هلاكنا ؟ وهل يمكن أن يكون لهذه الحياة ، وهي عادة عذبة اتخذناها بديلا للموت — هل يمكن أن يكون لها أي اعتبار ؟ كنا بعيدين عن الوطن وعن الأحباء ، بعيدين عن كل ما له علاقة وارتباط بحياتنا . لقد كنا نعيش في بلاد السباع والنمور ، وبين أناس يفوقوننا قسوة وعنفا . ولو كنا قد وجدنا أنفسنا مثل روبنسون في جزيرة خالية منعزلة وسط البحر ، لكانت العزلة على أية حال أفضل من الاهانة والضرب ، ولكان في امكاننا عندئذ أن نعيش تحت سماء الله الفسيحة ، ونبني حياة تناسبنا ولو كانت فقيرة معدمة . أما في هذه البلاد فقد حرمنا من الحرية ، بما فيها الحرية الجسمية ، وأصبحنا آلات في أيدي القساة ، ولم يكن لنا أمل في المساواة معهم الا بالتخلي عن ديننا . وكانت محاولة النجاة بالنفس مرتبطة بأخطار كثيرة ، فقد وقعت حادثة ، سأرويها فيما بعد ، ولذلك لم نجرؤ على الفرار . ولم يبق لنا عندئذ الا الأمل في أن فرنسا قد تستولي على قسنطينة وتحررها من عبوديتنا ، الا أن هذا الأمل كان في ذلك الحين لايزال بعيدا ، ولم تكن لنا قوة جسمية تساعدنا على احتمال تلك المتاعب المتواصلة جميعها .

كنا نرى أمامنا مستقبلا مظلما تماما . وعندما كنت أعود بذاكرتي الى الماضي وأتذكر أن نزقي وطيشي في أيام شبابي كانا السبب المباشر في هذه التعاسة كلها ، كنت أشعر بالندم وأوجه اللوم الى نفسي مما كان يجعلني شقيا الى أبعد الحدود . وقد نتج عن تلك الحالة النفسية ، التي كنت أعاني منها ، أن اعترالي انقباض في صدري وجمود في عقلي . ولم تدر العناية الالهية بخلدي وتلتمع فيه كشعاع من الضوء الا بعد وقوع حادث كان سببا في تحسين اوضاعي ، ومنذ

ذلك الحين بقيت تلك العناية الالهية بالنسبة لي بمثابة نجم يرافقني عبر الشدائد والمحن .

لم تدم راحتنا طويلا ، فقد فتح باب سجننا في صبيحة اليوم الخامس ، وأمرنا بانشاء قناة خارج المدينة ، عرضها 24 وعمقها 26 قدما وذلك لنقل ماء الآبار الى مكان قرب المدينة ، لان قسنطينة لم تكن بها بئر واحدة . وجاء الشتاء اثناء قيامنا بهذا العمل ، فاستمر هطول الامطار وهبوب الرياح الباردة مدة طويلة ، كما تساقطت الثلوج من حين لآخر وكان هذا الطقس ، الذي لم تكن ثيابنا تحمينا من سورته ، سببا في اصابتنا بمرض ، بدأ بالحمى الباردة ، ثم تحول الى حمى حارة وشرور اخرى ، وكل ذلك لأننا ، رغم مرضنا لم نعف من العمل . وحين عجزنا أخيرا عن الوقوف على أقدامنا ، اعدنا إلى السجن وتركنا تحت رحمة القدر،ولم يقدم لنا الخبز والماء الا بعد رجاء وبكاء طويلين . وهكذ ألزمنا فراش المرض الحقير لمدة أربعة أشهر ، عذبتنا خلالها الحشرات دون أن نتلقى اية مساعدة إنسانية . ولما عجز أحدنا عن مديد المساعدة للآخر بسبب الضعف ، نزلت علينا رحمة الله ، فقد فتح باب السجن ودعيت للحضور أمام قائد الدار لاقوم بدور المترجم اثناء استجوابه لأسيرين جديدين .

ومع أني لم أكن أتمنى لألد أعدائي أن يكون في الوضع الذي كنت فيه،فقد فرحت عندما سمعت بأن عددا من الرفقاء سيلتحق بنا . ونهضت عن فراشي قدر استطاعتي ، فقادني حارسان الى قائد الدار. وهناك وجدت شقيين فرنسيين ، أسرا قرب عنابة ، وهي مدينة ساحلية تبعد عن قسنطينة بخمسة عشر ميلا ، كانا عاريين مثلنا ، ضعيفين نتيجة سوءالمعاملة ، ولكنهما لم يستقبلا في قسنطينة الاستقبال المريح الذي استقبلنا به نحن ، لأن غضب الأهالي كان قد هدأ الى حد ما وعندما ترجمت سؤالي قائد الدار من أي جنس هما وكيف وقعا في الأسر ، وترجمت الجواب عليها من لغة إلى أخرى بصورة جيدة ، نزل من عليائه ونظر إلى لباسي لحظة ، إما لانه أراد أن يشكرلي على الخدمة التي أديتها له ، واما لأنه أحس باني أشاركه في لغته ، وقدم لكل منا حذاء وقميصا وبرنسا قديما . وحظينا في هذا اليوم وطوال مدة مرضنا بطعام ساخن ، إذ كان يقدم لنا برغل مطبوخ بالزيت . فأحدثت فينا هذه العناية المفاجئة تغيرا كبيرا واستعدنا صحتنا خلال فترة قصيرة .

وفي أثناء ذلك كان الربيع قد ورد ، وفيه يعود الباي كما جرت عادته إلى المعسكر لأخذ اللزمة . وكان قبل ذلك قد أمر قائد الدار ، الذي كان يشرف علينا ، بأن يحملنا إلى بستان له يقع خارج المدينة لإصلاحه . وبعد سفره بفترة قصيرة أرسلنا مع الفرنسيين ، وقد قيدت أقدامنا مثنى مثنى ، تحت حراسة مشددة إلى مكاننا المعين،وكان يبعد ساعة عن المدينة . وكان عملنا

يتمثل في أول الامر في البحث عن الخشب والقصب لبناء كوخ نقضي فيه ليالينا ، فكلفنا ذلك ثلاثة أيام ، لأن القيود كانت تعوق خطانا . وقدمت لنا أربعة معاول لإصلاح البستان ، لم نكد نتمكن من التحكم فيها ، وكان عملنا شاقا. كانت الأرض قبل ذلك مغروسة بأشجار العنب ، ولم يسبق لها أن حرثت ، ولهذا كانت صلبة إلى درجة أننا كنا في حاجة إلى ثماني أو عشر ضربات لنتمكن من حفر مقدار حفنة من التراب .

وانتفخت أيدينا وتلطخت بالدماء بعد فترة قصيرة ، وكانت أذرعنا تعاني من ثقل المعاول، والحرارة تنهكنا ، فنجلس فوق الأرض ، ولكن القرعات والضربات كانت ترغمنا على الوقوف مرة أخرى وهكذا كنا نعمل من مطلع الشمس إلى مغيبها مدة شهر كامل ، وطعامنا الخبز والماء . ولم يأمر قائد الدار بأن تضاف إلى الخبز الشربة المذكورة سابقا إلا بعد أن انهارت قوانا نتيجة سوء التغذية وبعد أن توقف العمل نهائيا . وبعد ثلاثة أشهر أليمة ، وقبل أن ننهي عملنا ، أرجعونا من جديد إلى المدينة ، لأن أعمالا مستعجلة كانت تتطلب حضورنا .

كان قصر الباي فيما سبق في حالة سيئة ، ولذلك أمر الآن بهدمه شيئا فشيئا ، وإضافة الشوارع المجاورة إليه ، وإقامة بناية تشغل حوالي مساحة هكتار ونصف تقريبا . فكانت هناك أعمال كثيرة يقوم بها الأسرى ، منها حفر الأساس وجلب الاخشاب والحجارة وغيرها . ومر الصيف والخريف أثناء هذا العمل ، وفي أحد الأيام حمل الينا ثلاثة رفقاء اخرين ، أسروا قرب بجاية ، وهي مدينة صغيرة تحت السيطرة الفرنسية ، تقع بين الجزائر وعنابة ، فأمرنا القائد باجراء تحقيق دقيق معهم : ما هي الأوضاع في فرنسا ؟ وهل سيهاجم الجيش الفرنسي قسنطينة ، ومتى يتم ذلك ؟ وأرسلهم بعد ذلك الينا ، فسرنا وصولهم ، إذخول لنا أن نقوم بعملنا بعدد أكبر من الرجال .

ورجع الباي ، فعاد اثرياء الاهالي ، الذين كانوا حتى تلك اللحظة ، يتنفسون بحرية ، إلى الاختفاء من جديد . كانت المدينة كلها تعيش تحت نير حضوره وكأنها تعيش تحت ضغط جو مرهق ينذر بالبرق والرعد . وانتهى الشتاء أيضا ، وقد رآنا الباي من شرفة قصره عدة مرات اثناء قيامنا بعملنا ، بل كرمنا بالنظر الينا عن قرب ، وسألنا إن كنا حتى ذلك الحين قد قمنا بعملنا بجد ونشاط ، ولكنه لم يفكر في تحسين أوضاعنا .

وفي ربيع السنة التالية 1834 ذهبنا مرة أخرى الى العمل في البستان ، وكان العمل لكثرة الأيدي أحسن منه في السنة الماضية . وتخلى كذلك مشرفونا عن صرامتهم السابقة إلى حـــد

كبير ، وازدادت ثقتهم بنا عندما تعلمنا أن نتحدث معهم بلغتهم . وقد استغل أحد رفاقنا هذه الثقة ، فحل القيد من رجله ليلا بواسطة مسمار ، عندما كان الحراس نائمين أمام الباب ، وفتح الجدار القصبي الخلفي ، وفر من السجن ، رغم أن رفيقه في القيد قد أوضح له استحالة نجاته . ولما شرع الحراس عند الفجر في عدنا كما جرت العادة ، افتقدوا واحدا منا ، فأخذوا يصرخون بصوت عال إلى درجة أن فلاحي المنطقة كلها استيقظوا على صراخهم وأقبلوا علينا في مجموعات كبيرة ، وبعد أن استوضحوا الأمر،بقي بعضهم لحراستنا بينما ذهب البعض الآخر للبحث عن الهارب ، وانتشرت الضجة على مسافة ثماني ساعات ووصلت جبال القبائل ، وبعث قائد الدار ، الذي كان قد أخبر بالامر في الحين ، بالفرسان الى جميع الجهات ، ووعد من يعيده إليه بثلاثمائة ريال .

وفي اليوم التالي أعادوا الهارب إلى قسنطينة مقيد اليدين والرجلين تبدو عليه آثار الضرب والخدش الشديدين . فكيف أمكنه يا ترى أن يقطع عشرين ميلا في أمان والحال أنه كان بلا زاد ، يطارده المواطنون نهارا وتطارده السباع والنمور ليلا ؟ ولم يدخلوه إلى سجننا ، وإنما وضعوه في سجن أسوأ ، ريثما يتخذ الباي قرارا بشأنه . وبعد ثلاثة أيام وصل الأمر بأن يقطع رأسه ، وفي اليوم التالي حمل في الثامنة صباحا وسط بهجة العامة خارج المدينة حيث قطع رأسه .

وكان لفراره عواقب وخيمة بالنسبة لنا أيضا ، فقد شددت علينا الحراسة وأقيمت حولنا القضبان الحديديّة ، وكان علينا أن نتحمّل من جديد اهانات كثيرة دون أن يعاقب عليها أحد . ومع ذلك كلّه فإن العمل في البستان كان أحب شيء إلى ، نفسي ، فمنظر حراسنا المعتاد لم يكن أكثر إرعابا من الوجوه القاسية في المدينة . لقد كنت في البستان أتنفس بحريّة أكثر وأشعر بأني قد انتقلت في الوقت نفسه إلى قسم من مدينتي ، حيث قمت ذات يوم ، وأنا ألعب ، بعمل مماثل ، ولذلك كنت أنظر إلى نهاية هذا العمل بحزن ، خاصة وانه كان من المتوقع أن يحال بيننا ، بعد أن انعدمت الثقة ، وبين العمل خارج المدينة ، لكن الانسان يفكر والله يقدر . لقد كانت عودتي إلى المدينة سببا في انقطاعي عن ممارسة أعمال العبيد بصفة نهائية .

الفصل السادس

تخلصي من القيد وتعييني في المدفعية - تجربة عربية في رمي القذائف
دانيال في جب السباع - زيارة قباش باشا التركي للباي أحمد

وذات يوم في شهر نوفمبر — كان الباي قد رجع من المعسكر ، وكنا نحن الأسرى نعمل في إصلاح بئر بالقصر — حضر أحمد باي نفسه برفقة قائد الدار ، لمشاهدة البناء الجديد . فمرا بنا صدفة وشاهدا عملنا ، فسأل الباي قائد الدار عن سلوكنا ، فكان الجواب في صالحنا جميعا ، غير أنه أثنى علي أنا بصورة خاصة ، لأني تقدمت في تعلم العربية تقدما ملحوظا ، فحدث عندئذ أن توجه إلي الباي فسألني عن أمتي وعما إذا كنت قد أديت الخدمة العسكرية في بلادي وما هي الأسلحة التي تدربت عليها . وحين أجبته عن السؤال الأخير بأني كنت في « سلاح المدفعية » أشار إلي بالاقتراب منه ، وقدم لي يده ، التي كان علي أن أقبلها من الجهتين ثم أمر أحد الحراس بنزع القيد عني ، والذهاب بي إلى باش طوبجي لتسجيل اسمي في المدفعية . وبعد ساعة أصبحت حرا وبومباشيا للحاج أحمد ، باي قسنطينة .

وقد حمله على تعييني في هذه الوظيفة دون شك وبالدرجة الاولى اعتقاده بأن مدفعيا أوربيا يستطيع أن يفيده فائدة كبيرة في حالة ما اذا حوصرت المدينة . ولذلك أراد في اليوم التالي أن يتأكد من مهارتي . حقيقة ، إن معارفي عن طبيعة المدفعية لم تكن ذات أهمية ، ومع ذلك فقد كان من السهل علي أن أتفوق على فيلق مدفعيته كله . كان الباي قد عين في الصباح ميدانا ، يغطيه الكلس ، ويقع خارج المدينة ، توجه نحوه القذائف من مدفع يزن خمسين رطلا ، وحدد مكافأة مقدارها عشرون ريالا لمن يوجه أحسن قذيفة نحو الهدف .

وبدأ الاختبار في الثانية عشرة . وكان الباي واقفا مع وزرائه فوق شرفة النصر ، بحيث يستطيع أن يتتبع عملية القذف بشكل دقيق . وكنا نحن فوق القلعة ، ومعنا كاتب يسجل في كل مرة أسماءنا ومدى قرب القذيفة من الهدف أو بعدها عنه .

ونظرا إلى أن كل منا كان يحاول أن ينال الجائزة ، فقد كان الدور الأول لأولئك المدفعيين الذين ادعوا أنهم كانوا قد برهنوا على مهارتهم أمام أسوار مدينة الجزائر ، الا أنه كان لابد من كثير من الصبر حتى يستطيع المرء مشاهدة الطريقة ، التي كانوا يرمون القذائف بها ، إذ أنهم كانوا يحشون المدفع ، ويسددونه نحو الهدف ، وكان أولهم قد احتاج إلى أكثر من ساعة لذلك. وعندما أرسل قذيفته ، وقعت على بعد أكثر من خمسمائة خطوة خلف الهدف . وجرى للثاني ما جرى للأول ، فقد انفجرت القذيفة في منتصف الطريق ، لأن الفتيلة كانت قصيرة . وكذلك كان الأمر بالنسبة للبقية ، إذ أنهم كانوا يوجهون القذيفة بعيدا عن اليمين أو يوجهونها نحو الشمـــال .

ويعود السبب في ذلك إلى طريقة تسديدهم ، فقد كانوا يمسكون بجعبة من أعلاها باليد اليمنى ، ويمسكون الرصاص باليسرى ، لكي يحولوا دون حدوث أية حركة ، ثم يضغطونها في الوسط — وهكذا حاول الجميع أن يوجهوا القذيفة ، وجاءت الساعة السادسة مساء دون أن يكون لأحد منهم الأمل في الحصول على الجائزة . وبقيت أنا وحدي ، إلا أنه لم يكن في استطاعتي ، نظرا لهبوط الظلام ، أن أتبين الهدف بوضوح ، ولذلك طلبت تأجيل العملية إلى اليوم التالي ، غير أن طلبي رفض ، وقيل لي : « إن الباي لم يحدد لرمي القذائف سوى يوم واحد . »

كان علي إذن أن أحشو المدفع ، وكنت قد حددت في فترة ما بعد الظهر الخط المناسب بين طول الفتيلة والعلو والمدة التي يستغرقها الحشو ، إلا أني كنت أخشى أن أفقد الاتجاه الذي حددته بسبب الظلام . وحشوت المدفع وسددته قدر استطاعتي ، ثم أطلقت النار — كانت طريقة اطلاق النار نفسها غريبة عني . لقد كانت أغلب القذائف صغيرة الحجم ، وتبعا لذلك كان المدفع واسعا . ومن ثم كانت توضع حول القذيفة تربة ناعمة ، حتى تحول دون اتصال نار الحشو بالفتيلة ، فأصبح من الضروري إدخال الفتيلة باليد اليمنى وإطلاق النار باليسرى .

غادرت قذيفتي المدفع ، فراح الجميع يتطلعون في ترقب إلى المكان الذي ستقع فيه . كان من المستحيل علينا أن نتتبعها بأعيننا ، ولكننا سمعناها تتفجر ، ووقعت إلى اليمين على بعد سبعة أقدام من الهدف . ولو أتيح لي في يوم من الأيام أن أسحب ورقة يانصيب عظيمة أو أحظى بنصيب هام في صندوق الحظ ، فإن فرحتي لن تكون أعظم من الفرحة التي أحسست بها عندما وجهت القذيفة . لقد أبهجني بهجة لا تقاس إلا بآلامي السابقة ، أبهجني أن أرى العرب ، الذين عاملوني مدة طويلة معاملة الكلب ، مشدوهين ، يعضون على شفاههم ، ويكتمون غيظهم ، لأن احترامهم لي ، وإعجابهم بي منعهم من إظهاره .

وفي نفس اللحظة حضر المملوك الأول ، ودعاني للمثول بين يدي الباي . وأظهر لي الباي رضاه عني ، وهو يقدم لي يده اليمنى لأقبلها ، وأعطاني الجائزة التي حددت قيمتها بعشرين ريالا ووعدني بالاهتمام بي أكثر إن أنا أصبحت مسلما صالحا ، ولكنني لم أهتم بذلك كثيرا ، لأنه كان قد أصبح من السهل علي البحث عن طريق للخلاص .

ومنذ تلك اللحظة صار من الواجب علي ان احضر إلى القلعة لاقوم ببعض الاعمال فيها . وذات يوم دعيت ، بصورة لم أكن أتوقعها ، للمثول بين يديه ، فالتقيت عنده بتركي عجوز ، يتقلد منصب حارس السباع . وبعد تقديم فروض الطاعة ، خاطبني بالاسم ، الذي أطلقه علي هو نفسه ، وهو عبد الرحمن بن أحمد ، وقال لي :

« عليك ، يا عبد الرحمن ، أن تذهب الآن مع هذا التركي إلى حظيرة الأسود ، وتتعلم منه كيف تطعمها وكيف تعاملها . وحين تتعود على ذلك ، يترك الحارس السابق منصبه لكبر سنه ، وتبقى أنت وحدك معها . »

ولم يفزعني لأول وهلة هذا الأمر الذي أصدره الي عن حسن نية ، فقد كان خوفي من الباي أعظم من خوفي من الحيوانات المفترسة . وهكذا ذهبت مع التركي الى حظيرة السباع من غير اعتراض ، فوجدت فيها ثمانية أسود ، أعظمها يبلغ طوله ، بعد إسقاط الذيل من الحساب ، سبعة أقدام ، وعلوه أربعة أقدام . وكانت كلها مروضه ، تطيع حارسها ، ولكنها ما رأتنا حتى تكمشت وجوهها بصورة مفزعة ، وتأهبت للوثوب علينا غير أن السلاسل القوية ، التي كانت تلف أعناقها ، وتتصل بحلقات حديدية مثبتة في الحائط ، حالت بينها وبين ذلك ، هذا بالاضافة الى أن الهراوة الغليظةالتي هددها بها العجوز ، سرعان ما أعادتها الى موضعها المعتاد . وبعدئذ أخذ التركي يوضح لي الطريقة ، التي يجب أن أعامل بها هذه الحيوانات .

كان من الضروري أن تنظف الحظائر في السادسة صباحا ، وتربط الأسود في الرحبة عندما يكون الجو جميلا ، وان يقدم لها الطعام في التاسعة ، وقد خصص لكل واحد منها رأس وأمعاء خروفين ، كما تقدم نفس الوجبة في الثالثة بعد الظهر ، ويقدم لها في الرابعة الماء الذي أعد في اناء خشبي . وعند الظهيرة ينبغي أن تحك ظهورها الواحد بعد الآخر بواسطة خشبة لأن الغبار الذي يستقر فوقها يسبب لها حكة قوية . وتعاد في المساء إلى حظيرتها ، وتشد إلى الحلقات الحديدية . وفيما عدا هذه الاعمال كان هناك عمل مزعج وخطر بالنسبة لي ، كان هناك أسد كبير أصيب بمرض ، تسبب في سقوط شعره ، فكان لابد أن يدهن عدة مرات في اليوم ، بناء

على أمر الباي ، بدواء أشير به عليه ، ويتكون من الليمون والقار والبارود . وكان هذا الدواء في الواقع حارا جدا واكثر ازعاجا للاسد ، لأن ظهره كانت به جروح عدة . ولهذا كان يثور بشكل فظيع بمجرد أن يلمح من بعيد الاناء الذي يحتوي على ذلك الدواء ، ومر وقت طويل قبل أن يسمح لي بممارسة هذا العلاج . أما الاعمال الباقية فكنت أقوم بها مع العجوز التركي ، إلا أنه كان علي ، حتى بعد مضي شهر ، أن أتجنب عددا من الوثبات الخطيرة . ولما تـــرك العجوز ، الذي كان يتحكم في الاسود تحكما كاملا ، منصبه ، أصبحت أباشر العمل بمفردي:

واصبح وضعي بعد ذلك خطرا فعلا ، رغم اني اكتسبت ، بذهاب التركي ، مجالا اوسع في معاملة الأسود ، وصار في إمكاني أن أنحرف عن النظام المتبع حرصا على سلامتي . كان من الضروري أن تكون للضرب ، في أغلب الاحيان وبشدة ، قوته التربوية ، وهكذا استطعت بعد حين أن أجعل الاسود ترجع واثبة الى الخلف بمجرد أن أدعوها لذلك ، وكانت تنال طعامها وشرابها بصورة منتظمة ، الا أني كنت أقدم لها الطعام بواسطة عصا ، لانها كانت تلوح بمخالبها نحوي عندما أقترب منها . ونظرا إلى أني كنت أخشى ، حين أخرجها إلى الرحبة ، أن تهاجمني ، فقد اغلقت الأبواب عليها كلها في الحظائر دون أن أدهن المريض منها،الا أن هذا الاستثناء لم يكن من الممكن أن يستمر طويلا خارج القاعدة . كان لابد أن يتغير بالقوة إذا تعذر علي أن أجد وسيلة ألطف لإثارة طبيعة هذه الحيوانات .

وللوصول إلى ذلك ، جلست عدة أيام قربها ، وأخذت أنادي كلا منها بالاسم الذي أطلقه عليه الباي ، وبالفعل نجحت في أن أجعل بهذه الطريقة لبوءة في الخامسة من عمرها نجحت في النهاية في أن أجعلها تتعود علي إلى درجة أنها كانت تقترب مني ، وتنام أمام قدمي ، وتدعني إلى ذلك أحك ظهرها كما كان يفعل الحارس السابق . وبعد أن تأملت الأسود الباقية هذه المعاملة اللطيفة لمدة طويلة ، أصبحت هي الأخرى تأتي ، الواحد بعد الآخر ، لألاطفـها ، ولكنها كانت تثب بعيدا وهي تزمجر ، كلما حركت اثناء ملاطفتها جسدي أدنى حركة.

وبهذه الطريقة تعودت علي شيئا فشيئا ، فلم يكن هناك من يعتني بها سواي ، وصار الأسد المريض بدوره يأتي إلي لأدهنه ، وسرعان ما شفي من مرضه ، ولم أعد بعد ذلك أتردد في إخراجها إلى الرحبة وربطها هناك . إلا أني فشلت في ذلك عدة مرات ، فقد فقدت قيودهـــا عند الخروج وراحت تثب في الرحبة ، ولم تعد إلي إلا بعد حديث طويل معها وتملق اليها ، فتركتني أربطها في مكانها .

كانت توجد فوق الفناء غرفة صغيرة ، ذات طاقة تحل محل النافذة ، وكنت أسكنها ، وأقضي فيها ، في الساعات التي لاتكون فيها الأسود في حاجة الي ، اليوم كله لا عمل لي فيه الا الانشغال بأفكاري. كان الباي قد أحالني بصورة ما على التقاعد ، سواء كان ذلك منه لانه اراد أن يريني عملا من اعمال الخير الاسلامية الصحيحة أو أنه أراد أن يمنحني الراحة الضرورية للقيام بأعمال أهم . فلو أنه كان يعلم أنني لم استغل هذه الراحة إلا لأحافظ في داخلي على حيوية الذكريات الجميلة ، التي كانت تربطني ، بوطني ، وللتفكير في الطرق التي تساعدني على استعادة حريتي ، لسلك معي مسلكا أقل محافظة علي . ان احساسي بالشفاء قد جعل أوقات فراغي مريحة ، وحين بدأت أحس بفراغ داخلي معين ، كنت أود من كل قلبي أن املأه بالقراءة أو التأملات العلمية ، ولكم ندمت على أني لم أمكن نفسي في أيام شبابي من التفكير في الاشياء المجردة بصورة مستقلة ، غير أني وجدت في الوقت المناسب ما اشغل به نفسي اليوم كله . فقد سلم إلي شبلان ونمر في حجم قطة صغيرة للسهر على تربيتهم ، وهو عمل مفيد بقدر ما هو مسل . لم يكونوا بعد قد تعودوا على الأكل ، فكانوا ، ثلاثتهم ، يتغذون بالحليب ، ولم تقدم لهم الكبدة المثرومة إلا فيما بعد ، فكانوا لا يتناولونها إلا من يدي . كنت أسلك معهم سلوك المعلم مع تلامذته ، أعني أني لم أضعهم في الحين مع الكبار المروضين ، وانما كنت أقدم لهم دروسا خصوصية في غرفتي . فكانوا ينامون طليقين في النافذة ، أو بالاحرى في الطاقة اليوم كله ، وهم ينظرون الى الاسود الكبيرة المدربة ، التي كانت تنتبه بواسطة صراخ الصغار ، لتزمجر هي الاخرى معبرة عن مشاركتها لهم وعطفها عليهم .

ولكن هذه الغريزة الحيوانية أوقعتني ذات يوم في موقع حرج للغاية ، فقد أوقظت من نومي في احدى الليالي ، فسمعت صوتا قبالتي في المكان الذي ينام فيه الشبلان ، فناديتهما عدة مرات ، ولكني لم أتلق جوابا . فاستغربت ذلك ونهضت ، وأشعلت النور — ويالها من دهشة ! كانت لبوءة عجوز قد فكت قيدها ، وقد جذبها صراخ الشبلين ، ودفعت الباب ، الذي كانت تسنده من الداخل خشبة فقط ، ودخلت غرفتي ونامت قرب الشبلين . وافزعتها بحركتي فهربت ولكنها عوضت أن تأخذ الدرج ، وثبت الى الخارج من نافذة في الطابق الثاني .

كان من الخطر البالغ أن أتركها تدور طليقة في الليل ، فقد كانت هناك شجرة توت وسط الفناء ، يمكن أن تتسلقها ، وتأخذ طريقها فوق حظيرة الحيوانات ، ثم فوق السقوف وتتجه إلى المدينة . فاخذت المصباح ونزلت إلى الاسفل وربطتها ، وقد لاحظت أثناء ذلك أن الانسان ، إن هو أخذ اثناء الليل مصباحا يستطيع أن يعامل هذه الحيوانات بصورة أقل خطرا بكثير من معاملته لها بالنهار .

وبعد هذه الحادثة بمدة جاء تركي ، أطلق عليه العامة اسم قوباش باشا ، 13 . لزيارة الباي أحمد ، فكانت هذه الزيارة سببا في صدور أمر لي بالمضي إلى القصر مع الشبلين ليشاهدهما الضيف ، فأخذت كلا منها تحت ذراعي ، وذهبت الى الباي ، فوجدته جالسا قرب الرسول فوق اريكة ، ولاحظت في الحين ان الشبلين لم يكن لهما وحدهما شرف الفوز باعجاب السادة الكبار فقط ، وانما كنت أنا أيضا الطرفة الثالثة ، التي اراد الباي أن يتسلى بها ويسلي ضيفه ، فبعد أن قبلت يديهما ، أخذ أحمد باي يحدثه عن اصلي ، فانطلق التركي ، وكان اعرف بالاوضاع الاروبية من أحمد باي ، يحدثه ، بعد القاء بعض الاسئلة علي ، عن الخصائص التي اتمتع بها بصفتي بروسيا ، فتقبلها الباي بسرور. وحين لم تعد بهما حاجة إلي ، كان على الشبلين أن يقدما بعد ذلك فنيهما .

كان علي أن أتركهما يجريان ، فكان الصغيران يثبان في الغرفة ويصرخان ويطاردان بعضهما بعضا ويلعبان ويستفز أحدهما الآخر ، ومزقا أثناء ذلك عددا من المخدات الحريرية المبعثرة في الغرفة . فاردت مسكهما ولكن الباي وجد متعة كبيرة في ذلك ، وأمرني أن أتركهما يلعبان ويعبثان ، وأخيرا حل محل هذا المشهد شيء أعظم. كان علي أن أعيد الشبلين وأقود ، بعد لحظات ، اسدا أكبر الى مسكن الباشا : فاخترت لذلك أكبر الأسود ، وهو في العاشرة من عمره ، وكان أحبها الي ، وكان يطيعني طاعة تامة. فأخذته من السلسلة ، ففسح لنا الحارس الطريق ، داعيا الناس الى الابتعاد ، فخطونا أنا ورفيقي ، في وئام تام ، عبر الشوارع دون توقف ، فيما عدا أنه جلس عدة مرات ونظر حوله وزار وعند وصولنا الى مسكن الباشا ، قيدت الأسد إلى عمود مرمري . وظل هادئا مضطجعا أمام قدمي طوال وجودي قربه ، ولكني ما كدت أبتعد عنه ، حتى راح يزأر بشكل رهيب الى درجة أن الباي وضيفه ، اللذين كانا نائمين في قسم آخر من القصر ، قد استيقظا من النوم ، وأقبلا مسرعين لمشاهدة الاسد .

وبعد أن ابتلع الطعام الذي قدمته له ، أمرني الباي أن أريه إلى أي حد وصلت في ترويضه والألفة معه . فوثبت معه عدة مرات حول العمود ، ثم غلقت باب الفناء وأطلقته . وبدأنا في الحين نثب ، أحدنا خلف الآخر ، وقبل أن ألتفت ، وثب بأماميتيه فوق ظهري وأوقعني أرضا ، وعضني ، بعد أن فتح فمه إلى آخره ، في قفاي فصدرت عن المشاهدين كلهم صرخة فزع ، وفزعت أنا الآخر ، وبقي في هذا الوضع عدة ثوان ثم وثب بعيدا من جديد دون أن يأذيني. فرضي السيدان عني رضا كبيرا ، وصرفاني بعد أن قدما لي 30 ريالا هدية .

ولم يكن رجوعي موفقا مثلما كان مجيىء ـ ذلك أني كدت أترك الفناء مـــــع تلميذي ، حتى شاهد في أسفل الطريق فلاحا يركب بغلا ، فاسقطني أرضا بوثبة قوية ، وهرب بعيدا عني في طرفة عين. فوثب الفلاح من فوق البغل، ودخل بيتا قريبا منه لينجو بنفسه، وأسقط الأسد ، الذي كان خلفه ، البغل أرضا ، دون أن يجرحه ، وانطلق عبر بعض الشوارع . واتجه بالتالي الى الباب، وخرج الى الخلاء فأسرع كل من كانوا في الشارع الى منازلهم بأقصى ما يستيطعون ، ولكن الاسد قتل خارج المدينه حمارا ، وقتل بعد ذلك بقليل بقرة ، وبقي جاثما فوقها .

*

أخبر الباي بذلك في الحين ، فلم يأمر بقتله ، وانما طلب مني أن أعيده الى الحظيرة ان أمكنني ذلك . فاسرعت إلى الخارج دون تردد ، وناديته باسمه عدة مرات ، وبقيت بعيـــدا عنه ، لأنه كان يجيبني بالزمجرة. وبعد إغراء مكرر جاء إلي أخيرا ، وقد شبع ، فتركني أقيده وسار خلفي طائعا ، كالحمل ، حتى الحظيرة . وعندما ذهبت إلى الباي مرة أخرى وأخبرته بذلك أجابني بابتسامة،كانت تعني ،فيما بدالي ، لكم كنت قريبا من الموت لوأن مسلما واحدا فقد حياته الغالية بسببك !

واذا ضربت صفحا عن هذه الأخطار ، التي تعرضت للكثير منها،فان الأيام التي عشتها بين الأسود تعتبر أيام آحاد وأعياد حقيقية بالنسبة لباقي الايام التي قضيتها في قسنطينة .فقــد كنت أشعر في حظيرة حيواناتي كأني قد نقلت من ميدان النزوات الانسانية الى وضع طبيعي يعتني فيه الانسان باقامة علاقة أكثر هدوء مع حيوانات الغاب ، فيجمعها حوله ، ويطلق عليها الالقاب ، ويخضعها كالخالق لطاعته . وشعرت أني قد ارتفعت عن درجة الحيوانات ، التي كنت قد دفعت اليها بصفتي عبدا قبل فترة ، وأستعدت كرامتي الانسانية ثانية ، كما رجع الي ايماني ، الذي كدت أفقده ، تدريجيا ، ايماني بأن للانسان قيمة لا ينبغي أن يسئ اليها أحد ، لاسيما وانها تحتم حتى على الحيوانات المتوحشة أن تنكر ذاتها وتعترف بالجميل .

لشدما كان يسرلي ويبهجني ، حين أكون جالسا بين تلاميذي ، وهو ما كان يحدث لي في أغلب الأ. . . ، ب ارى الطبيعة بكل ما لها من جلال تلتمع أمامي من خلال عيونهم وحركاتهم .عندما كنت أرى النمر يلعب مع الأسد والصغار يلعبون مع الكبار لعبا بريئا ، وأستطيع أن أخمد ثورة هذه الحيوانات بكلمة واحدة وبنظرة واحدة إذا حدث أن عرضت نفسي سهوا للخطر ، كنت حينئذ أتذكر الأخطار التي نجوت منها ، وأتلو هذه الكلمات في كآبــة :

من الخطر أن توقظ الأســد ،

ومرعـب هو النمـر المكشر عن أنيابـه ،

إلا أن أخطـر ما يواجهنـا ،

هو الانســان في جنــونــه .

ومن المؤسف حقا أنه كان علي أن أشعر بحقيقة هذه الكلمات بعد فترة قصيرة بعمق أكثر .

الفصل السابع

ادعاء تركي - حملة ضد المدية وعنابة - امثلة أخرى عن القسوة احمد باشا واحمد بومزراق ، باي قسنطينة - انتون غبهارد المانيسي الجمرات الملتهبة ، خرافة .

أثار السفير ، الذي تحدثت عنه سابقا ، اهتماما كبيرا في قسنطينة كان عند وصوله يرتدي برنساً حريرياً أحمر وقلنسوة كبيرة حمراء بدون عمامة . وكان يبدو فخورا جدا بالشارة التي تزين صدره ، فعندما أراد احمد باي أن يقبله عند استقباله كما جرت العادة ، قال وهو يشير الى شارته : هذه هي الجديرة بالاحترام لاأنا ... ولعله كان يريد بهذه الكلمات ان يذكر الباي بأنه مرتبط بالسلطان الأعظم ، الذي قطع منافسه الأمير عبد القادر علاقته به . وقد حمل لباسه ، المتكون من رداء طويل ومعطف ازرق وجزمة عالية أهالى قسنطينة ، وكان قد وزع عليهم عند دخوله المدينة قطعا نقدية تركية تقربا اليهم ، حملهم على اتهامه فيما بعد ، فكان أحدهم يقول للآخر سرا ، انه ليس تركيا ، وانما هو مسيحي وجاسوس للفرنسيين ، ولكن أحمد باي كان مقتنعا بعكس ذلك ، والا فانه ما كان ليبالغ في احترامه الى هذا الحد ، ويخلع عليه عند سفره خلعا هامة . وقد ذكر بعد ذلك أنه أرسل بنية تشجيع الباي ورعاياه على مقاومة الفرنسيين والتأكيد على حماية الأتراك لهم عند الضرورة واخبرهم بأن جيشا تركيا سينزل قرب تونس خلال ثلاثة أشهر ، ويتوجه قسم منه الى قسنطينة لمهاجمة الفرنسيين براً مع أحمد باي ، بينما يتوجه القسم الآخر الى عنابة لمحاصرتها .

وبعد سفره بثلاثة أشهر ، وكان قد أقام عندنا عشرة أيام ، وصل تركي آخر عن طريق طرابلس حاملا أوامر من قبطان باشا ، وحمل هو الآخر تأكيدات شفوية وكتابية تتعلق بالمساعدة التركية ، وأخذ هدايا كثيرة وسافر ثانية ، ولست أدري كيف استطاع أحمد باي أن يثق بالأتراك ، مع أن وعودهم كانت مجرد كذب من أولها إلى آخرها .

وفي ربيع سنة 1836 م خرج أحمد باي في المدينة ، وكان خروجه في هذه المرة للقيام بحملة مهمة . واخذ معه عددا من رجال المدفعية يتراوح بين 20 و30 مدفعيا الى جانب عدد من المدافع وتركني أنا لحسن حظي مع أسودي ، ولكن فرحتي بذلك لم تدم طويلا . فبعد شهرين من سفره وصلني أمر بتسليم وظيفتي الى الحارس القديم والالتحاق بالمعسكر في الحين ، فوضع تحت تصرفي بغل وما يكفي من الرجال لحراستي .

وبلغنا المعسكر — بعد مسيرة 48 ساعة وأخبر الباي بوصولي ، فدعاني للمثول بين يديه وشكرني ، وأخبرني بأنه يريد أن يهاجم معسكر الفرنسيين قرب عنابة . ولذلك فهو في حاجة أكيدة لخدماتي ، لأني أفضل من يعرف قوة المسيحيين وطريقتهم في المبارزة . الا أننا في سيرنا ، لم نتجه نحو الممتلكات الفرنسية مباشرة . وانما اتجهنا أولا نحو غرب قسنطينة الى منطقة المديه لاخضاع سكانها الذين أخذوا يتاجرون مع الفرنسيين ومنعوا العشور عن أحمد باي .

وتقع مدينة المديه على بعد حوالي 50 ساعة بالجنوب الغربي من قسنطينة ، وكان الفرنسيون قد احتلوها فيما بين 1830 و1831 ، ولكنهم طردوا منها ، فلم يكن من المفروض على سكانها أن يدفعوا العشور لا للفرنسيين ولا لاحمد باي . غير أن فلاحي المدية ، الذين كانوا يسكنون على بعد 20 ساعة من قسنطينة ، كانوا دائما يدفعون العشور للباي ، لكنهم قطعوه عنه عندما تأكدوا من حماية الفرنسيين لهم .

كان معسكر احمد باي يتكون من 120 خيمة كبيرة شبيهة ببيضة مقطوعة من الوسط ، تكون شكل دائرة ، تتسع الواحدة منها لخمسين جنديا من المشاة ، وفي هذه الدائرة توجد خيام الفلاحين الفرسان المختلفة الأشكال والألون ، وهي ليست للباي وانما هي لاصحابها ، ويتولى عبيدهم نقلها فوق البغال والجمال . وفي مركز الدائرة تنتصب في مكان عال ثلاث خيام بيضاء خاصة بالباي ، وهي طويلة الشكل ، جدرانها وأرضيتها مغطاة بزرابي نفيسة .

وكان الباي يخصص الأولى لاستقبال الوزراء والأجانب ، وكانت الثانية خاصة بتناول الطعام ، أما الثالثة ، وهي متصلة بالثانية بواسطة باب ، فخاصة باقامة الحريم . وكانت هذه الأخيرة واسعة جدا ، يحيط بها من الخارج حاجز ، ويحرسه في الليل أربعون جنديا ، بالاضافة الى ثلاثين أوأربعين كلبا من الكلاب الكبيرة ، كانت مربوطة بالسلاسل .

وعندما تأهب المعسكر للسير ، تقدمه اثنا عشر بغلا محملة بدواليب جميلة . بعضها مغطى بازر خضراء ، وبعضها الآخر بأزر حمراء وكان في الخضراء منها نساء الباي ، وفي الحمراء خادمتهن ، وكلهن من الزنجيات .

وكانت الحراسة تقام في الليل أمام كل خيمة من خيام الجنود ، وينادي الحراس في الليل أمام كل خيمة من خيام الجنود ، ينادي أحدهم الآخر وكانوا يغيرون في كل ساعتين ، حين أنه كان علي حراس الخيام ، التي تقع داخل الدائرة ، أن يظلوا طوال الليل كله واقفين امام الخيام ، ولم يكونوا هم الذين يحرصون على ان يبقوا يقظين ، وانما كان هناك قائد أسود ينادي باسم الخيمة في كل نصف ساعة ، فكان على الحراس أن يجيبوه . وكان الباي يتولى بنفسه الاشراف على جناحه لأنه كان يعيش ، أثناء الليل وأطراف النهار ، في خوف على حياته وحياة نسائه . وكان يستعمل لذلك خرارة خشبيه مثل تلك التي يلعب بها الأطفال عندنا فكانت لكل حارس خرارة من هذا النوع ، وكان عليه ، كلما حرك الباي خرارته ، ويحدث ذلك مرات في الليل ، أن يجيب بتحريك خرارته .

وكان أيضا كثيرا ما يتفقد الحراس بنفسه ، والسيف في يده ، فاذا وجد أحدهم نائماً ، قطع رأسه في الحال ، وقد وقعت حسب روايات الجنود أحداث كثيرة من هذا النوع .

وبدأنا السير ، واستغرق ذلك خمسة أيام . وكان العرب يركبون في المقدمة ، ويتبعهم الباي وحاشيته والبغال والجمال التي تحمل نساءه وثرواته ، وكان المشاة يسيرون في الجناحين ، وتتكون المؤخرة من حشد كبير من الفرسان العرب أيضا . ووصلنا في اليوم الخامس قرب العدو ، الذي كان قد توقع وصولنا ، فجمع قوة كبيرة وتهيأ لاستقبالنا . وفي الثالثة من صباح اليوم التالي أطلقت طلقة مدفع لبدءالهجوم . فاندفعت الخياله (الدائرة) وتتكون من عشرين ألف رجل يقودها عدد كبير من القواد ، نحو العد وفي صراخ مهول ، ولكنها جوبهت بمقاومة عنيفة ، فعادت دون أن تحقق شيئا . فاحتد الباي عندما رأى ذلك ، وجعل خمسين ريالا جائزة لكل من يحمل اليه رأسا . ولكن الهجوم الثاني لم يجلب رؤوسا أيضا ؛ فاستبد به عندئذ الغضب ، ورفع الجائزة الى 100 و200 بل 300 ريال ، وذلك ما كان ينتظره الفلاحون الجشعون .

وهكذا هجموا على الاعداء كالأسود ، ولم تمض ساعتان حتى تجمع أمام قدمي الطاغية 496 رأسا ، ولكنه مع ذلك لم يشف غليله من الدماء . فجلس أمام الخيمة ، حيث وضعت الرؤوس ، وقد وقف قربه مملوكان ، يقدمان الجوائز لكل من حمل رأسا . ونظر الى أن قطع الرؤوس ، لانعدام الأمواس الحاده . لم يكن يتم بسرعة ، فقد حمل الكثير اسراهم الى الخيمة أحياء . غير أن الباي لم يسمح بدفع المال قبل أن يخنقوا وتقطع رؤوسهم فكان يستقبل من حمل اليه هؤلاء الاسرى المساكين بقوله : «هات الرأس !» .

لقد حضرت بنفسي عملية اعدام بشعة من هذا النوع ، ولا أتذكر تفاصيلها الآن الا وتعتريني برودة مريعة . كان أحد فلاحينا قد حمل الى الباي أحد أعدائه حيا ، فطلب منه

رأسه ، وفي الحين طرح ذلك الشقي أرضا ، ثم أخرج من جيبه سكينا في طول الأصبع ، وهويصيح بالأسير : لا تتحرك ! وانحنى فوقه ليقطع رأسه ، ولكن الموسى لم ترد القيام بواجبها ، فوضع رجله اليسرى فوق عنقه ليظل ثابتا في مكانه ، ومسك حجراً ليشحذ به السكين ، ومع ذلك فانه يستطيع قطعه في هذه المرة أيضاً ، رغم عمق الجرح في عنق الرجل ، بسبب ثلمه وقصره ، فانزعج الفلاح من هذه العملية ، لأنها تضيع عليه فرصة اسر آخرين ، فناداني ، أنا الذي كنت قريبا منه : تعال ايها الاخ واقطع هذا الرأس بسيفك !

ولو أني استجبت لرغبته لكان هذا طبعا عملا مسيحيًا خيرا ، ولكنّ خوفي من الباي ، ان أنا تركت محلي دون أمر منه ، وخوفي مما يترتّب على سفحي لدم مسلم ، حملني على التردّد في الأمر. وفي أثناء ذلك أخذ يحزّ بالموسى حول عنق المسكين بالقوّة خمس أوست مرّات ، والضحيّة لا تخرج من فمه سوى كلمة ربي ربي ، وجثا فوقه ومسك رأسه بكلتا يديه ، وراح يديره الى كلّ جهة ونزعه أخيرا بجلده عن الجسـد ....

أشكر الله على أن في وسعي الآن أن أعيش وأن أتنفّس في هذه الجهة من البحر— ذلك أن قوّة العادة لا حدود لها ، وليس في استطاعته أي انسان أن يعرف الى أي حدّ تستطيع طبيعته أن تحميه منها : لا أريد أن أخفي شيئا : الحقيقة أن منظر هذه الأعمال البشعة اليومي قد أكسبني خشونة كبيرة بحيث اني كنت أشعر— بأن شيئا ينقصني حين لا أشاهد في يوم من من الأيّام أحدا يقطع رأسه أويبتر. ولست أدري ، وأنا اكتب هذا ، ان كان قرّائي بشعورهم التي لايفسرون حديثي عن هذه الأعمال الوحشية على أنها من بقايا تلك الوحشية التي لصقت بي !

كانت الرّؤوس ، التي جمعت بالطّريقة التي وصفتها ، توضع في أكياس كبيرة وترسل الى قسنطينة ليشاهدها الناس ، اما الاجساد فتترك فريسة لبنات آوى ، ونظرا الى انها فسدت بسبب الحرارة الكبيرة وسممت الجو ، فقد وجب علينا أن ننقل معسكرنا الى مكان آخر يبعد بستّ ساعايت . وأقيمت الحراسة في اللّيل وبقي كلّ شيء هادئًا وبدأ الهجوم ثانية في فجر اليوم التّالي ، ولكن المعركة لم تكن دمويّة جدًا كالمعركة السّابقة . الا أن فلاّحينا قد حملوا الينا سبعة من شيوخ الأعداء البارزين ، وكانوا كلّهم من عائلة واحدة ، وكانت ملابسهم جميلة على طريقتهم ، ووجوهم بيضاء وجميلة ، تدلّ على عراقة النسب .

واستقبلهم الباي بلطف كبير ، واجلسهم الى جانبه في خيمته ، فأحضر كرغلي القهوة ، وقدّم للباي الفنجان الأوّل ، ولكنّ الباي رفضه ، وأمره بأن يقدّم القهوة أوّلا للأسرى . وسألهم أثناء ذلك بلطف مصطنع : هل تعرفونني ؟ فأجابه أحد الرجال السبعة ، وهو رجل جميل

ضخم الجثة : نعم إننا نعرفك ! فأنت أحمد باي قسنطينة . قال أحمد : « لست بايا فقط ، وأنا أيضا باشاكم وحاكمكم المطلق . لماذا انقطعتم عن دفع العشور وتجرأتم دون اذني على المتاجرة مع فرنسا ؟ فجاء الجواب : «ان لنا ، أيها المولى ، أطفالا ، ومن واجبنا ان نعيلهم ، لكننا لا نستطيع أن نتاجر مع قسنطينة ، فنقودك لا قيمة لها عندنا ، ونحن اقرب الى الجزائر منا الى قسنطينة . قال الباي : طيب ، لستم في حاجة الى دفع العشور لي ، ولكن ما رفضتم أن تأتوني به ، سآخذه بنفسي ، والآن فان كل مدخراتكم ملك لي .»

وبعد هذه الكلمات أشار الى الجلاد ، وأمره بأن يقطع لكلّ منهم لسانه ويده ، وطيف بهم مشوهين على هذه الصورة في المعسكر ، وينادي عليهم : صار انت رومي ! ولكن انتقام الباي لم يكن يعرف الحدود ، فبعد عودتهم ، أمر بقطع أنوفهم وآذانهم وأيديهم اليسرى امام الخيمة ، ثم الطواف بهم في المعسكر . وعندما سقطوا في النهاية فوق الأرض من جرّاء التزيف الكثير ، تركهم نصف ساعة في الشمس عرضة للذباب ، وبعد ذلك أمر بقطع رؤوسهم .

وفي اليوم الثالث وقع الهجوم مرة أخرى ، ففر الاعداء وتركوا لنا نساءهم وماشيتهم وغلالهم غنيمة ، فنزعت الثياب عن النساء ، وتركن هناك وحيدات ، وحمل الباقي الى قسنطينة . وأدرنا نحن أيضا ظهورنا لمشهد من أبشع أنواع التقتيل ، وتركنا قسنطينة عن يسارنا ، ونقلنا معسكرنا الى منطقة الباي لنجمع عددا أكبر من الناس لمحاربة الكفار .

ينبغي أن نذكر بالمناسبة أن نجاح الحملة ضد المدية ، قد حمل الحاج أحمد على الغرور ، الى درجة أنه جعل من نفسه باشا ، وعين بايا لقسنطينة ، وهو أحمد بن مصطفى بومزراق ، باي المدية السابق ، وقد سمعت من يناديه باسم بومرزاق أيضا . وكان قد سمي سابقا بايا ، مع أنه لم يكن له مدخول في المدينة ، وكان يعيش من ثروته الخاصة ، وكان أخوه عقيدا في الجيش الفرنسي في وحدة قناصة افريقيا . كان أحمد بومزراق قد وصل الينا ، عندما كنا معسكرين في منطقة المديه ، بمفرده ودون أسرته بناءا على طلب الباي . واقترح عليه أن يذهب معه ، بعد أن أصبح هو باشا ، الى قسنطينة ليكون بايا بها . وسواء كان قد اراد ذلك أو لم يرده ، فقد ذهب معه ولكنه لم يشارك في الحملة على الفرنسيين ، وبقي في قسنطينة ، حيث وضع تحت الحراسة السرية ، بأمر من الباشا المزعوم ، خوفا من أن يدفعه الندم الى الهرب .

كان أحمد باي بومزراق في سن تتراوح بين 42 و 44 ، وهو رجل جميل الطلعة ، طيب القلب ولم ترق له الإقامة في قسنطينة ، ولكنه لم يدع أحدا يلاحظ ذلك . وعندما رجعنا . اقترح على الباشا أن يقدم له 600 راجل وحوالي ألف من الفرسان العرب ، ليهاجم بهم العرب

الذين يعيشون حول المدية ويحتل المدينة نفسها . فوقع الباي ، وأحب أن أسميه بهذا الاسم الذي يستحقه ، في الفخ ، وتصور نفسه مالكا للمدية ، فقد قدم له الفرق المطلوبه ، وبمنى له فوق ذلك النجاح . بل لقد أرسل له بعد أيام مبلغا كبيرا من المال ، ليدفع للجنود رواتبهم مسبقا تشجيعا لهم وليحمل الفلاحين ا لأعداء على التسليم عن طريق الهدايا .

ولكن بومزراق كان له مشروع آخر ، وقد سره جدا أن يترك قسنطينة خلف ظهره ، لأن الباي كان سيقطع رأسه طال الزمن أو قصر ، فكتب الى أصدقائه سرا ، فاجتمعوا ، وكان عددهم كبيرا جدا، عن يمين الجبال المجاورة وشمالها ، دون أن يخبر أحدا بذلك . وعندما سمع بومزراق بهم ، لم يدفع المال للجنود ، وانما أحتفظ به في جيبه ، وأمر جنوده بالسير ليلا للاقتراب من العدو . وكان قد قطع مسافة ساعتين بين الجبال الممتلئة بالجنود ، حين هوجم جنوده من كل جانب ، فهزموا بعد أن فقدوا خيامهم وأمتعتهم ، وانقذ هو نفسه بماله وبغاله وعاد جنودنا الى قسنطينة جرحى ومسلوبين ، وفي وسع الانسان أن يتصور مبلغ غضب أحمد بسبب هذه الحادثة ، الا انه لم يكن له وقت للآنتقام .

وكان لاحمد باي ما يكفيه من الذكاء ليجعل لحملته طابعا دينيا ، حتى يتمكن بذلك من القضاء على أي شكل من أشكال المعارضة . لهذا أرسل رسائل الى جميع المرابطين ، لا في منطقة قسنطينة فقط ، وانما في المناطق المجاورة لها أيضا ، يطلب فيها منهم ، وهم يحظون بعد الله ورسوله باحترام كبير من طرف المسلمين ويؤثرون فيهم تأثيرا كبيرا ، أن يوافقوه في الرأي ويآزروه في حربه . وبعد وقت قصير تجمع جيش يبلغ عدده 180 ألف رجل ، وقبل أن أصف هذه الحملة ، أرى من واجبي أن أقدم مشهدا مؤلما ، حزنت له أشد الحزن لأنه وقع لأحد رفاقي .

قبل مسيرنا بيوم واحد نادى مناد فجأة وبصوت عال أن أسيرا مسيحيا قد حمل الى المعسكر، فاسرع الجميع لمشاهدته ، واندفعت أنا الآخر عبر الحشد ، واذا بفزع رهيب يستولى على ، فقد رأيت أنتون غيبها رد المايتسي ، الذي حمله ما كان يعانيه في قسنطينة من شقاء على الفرار ليلا لينجو بنفسه الى الاراضي التونسية ، وكان قد قضى سبع ليال في الجري ، دون أن يتناول خلالها طعاما ، ارتكب خطأ ، فقد توجه الى أحد الاعراب وطلب منه قليلا من الخبز . ولكن هذا الاعرابي القاسي مسكه وحمله من أقرب طريق الى المعسكر .

وعرفه أحمد باي في الحين ، وخاطبه قائلا : كافر ، كلب أنت رومي ! فأجاب رفيقي : فررت يامولاى لقلة الغذاء واللباس . فقال الباي : طيب ، سأقدم لك شيئا من ذلك . وفي الساعة الرابعة بعد الظهر أمر بوضع القيد في رجليه ، وطلب من مماليكه أن يحضروا الكلاب ثم

أخذ يشليها على المسكين بقوله «هبر» ولكن الكلاب لم تعضه ، وانما وثبت مارة به نحو بقرة ، فغضب الطاغية ومسك كلبا من السلسلة ، وحرضه مرة أخرى وهو يدفعه ليريه الهدف ، نحو صدر غبيهارد ، وعندئذ مسكه الكلب الحانق في عنقه ، وتبعته الكلاب الاخرى ووثبت عليه من كل جانب ، وبعد لحظات كان يضطجع فوق الارض عاريا مدرجا بدمائه — ياغبيهارد الطيب ، يارفيقي في الشقاء ، ياصديقي الغالي ! ترى هل يصدق من رآك في تلك الحالة أنك تعيش اليوم في فرنسا في هناء وعافية ؟ حقا ان الذي انقذك لا يمكن أن يوصف الا بأنه معجزة حقيقية ـ لقد أحس كبار رجال الباي ، الذين كانوا يحيطون به بعاطفة انسانية ، وتوسلوا اليه أن يعفو عنه ، فأمر الباي ، عن كرم أو نباهة ، بمسك الكلاب وارسال المعذب المسكين الى المدينة وهناك عالج نفسه بنفسه ، ونال حريته معي في الوقت نفسه .

وأخيرا تقدم الجيش ، وكان الخليفة ، ومعه أربعة الآف فارس و 800 رجل يشكل الطليعة ، وتقدم الاولياء ، الذين يبتدئون كل أعمالهم بمدائح وأدعيه ، وهم في الحقيقة أكثر رجال الدين وحشية في العالم كله ، يتشكلون مع اتباعهم الميمنة والميسرة ، وكنا ، نحن المدفعيين ، ومعنا هاونان وقاذفان ، وثلاثة مدافع ، والباي وحاشيته ، نكون القلب . أما نساؤه وكنوزه فقد بقيت تحت الحراسة القوية ، على مسافة يومين خلفنا . وكان أول ما حدث هو نهب جميع القرى التي احتمت بفرنسا ، واكتساحها وهدمها ، أما الفلاحون أنفسهم فقد اقتربوا ، خوفا من أحمد باي ، من معسكر الفرنسيين ، الذي بلغناه أخيرا في السادسة مساء . ووضعت خطة الهجوم في الليل ، فقرر الباي أن يهجم على المعسكر من جميع الجهات بأربعين ألف فارس في آن واحد ، بينما تكمن المدفعية والمشاة لتقطع على الفرنسيين طريق الهروب .

وقد زاد من شجاعة أحمد ما أخبره به فلاّحان أسيران من انّ المعسكر الفرنسي ليس له من الذخيرة والموادّ الغذائيّة الا ما يكفيه لمدّة ثلاثة أيّام ، وانّه لم يبق له شيء من الماء . وكانت مكافأة الباي لهذين الفلاّحين على هذه الأخبار المهمّة ، التي استخرجها منهم عن طريق الوعد باطلاق سراحهما ، أنّه أمر بعد ذلك بقطع رأسيهما . وهذا هو عين ما حدث لأحد عربنا ، فقد أسره الفرنسيين وحملوه الى المقدّم يوسف ، قائد المعسكر ، فأطلق سراحه بدافع سياسي بعد أن قدّم له حذاء جديدا وبرنسا أحمر وأعطاه فوق ذلك عشرين فرنكا . وعندما عاد الى معسكرنا ، أخذ يتحدّث عن كرم يوسف ، وهو ما كان يوسف يهدف اليه ، فاستدعي في نفس اليوم للمثول بين يدي الباي ، فقال له دون أن يطيل الحديث معه : «ان البرنس يواتيك :» ، ثم أمر بضرب راسه . ومثل هذه الاعمال لاتعود الى الذكاء بقدر ما تعود الى القسوة ، وتدل على ذلك حادثة أخرى . فقد القت طلائعنا القبض على خمسة مالطيين ؛ كانوا يعملون

خارج المعسكر ، ولكن الباي وهبهم حياتهم واكتفى بارسالهم الى سجن قسنطينة ، وذلك لأنّه كان يرغب في صداقة الانجليز ، الذين تقع مالطة تحت حمايتهم .

وفي صبيحة اليوم التّالي وقع الهجوم ، فاندفع العرب في غضب ، ورفعوا البنادق فوق رؤوسهم وأطلقوا النّار فوق المعسكر ، ولكنّ الفرنسيين اطلقوا عددا كبيرا من القذائف ، وألحقوا بالفلاّحين خسائر فادحة ، وأرغموهم على الرّجوع . وأعاد أحمد الكرة عدّة مرّات ولكنّ محاولته باءت بالفشل . وعندما يئس من تحقيق هدفه ، ارتحل في الرّابعة مساء ، وعاد الى قسنطينة بخفّي حنين .

وفي طريقنا الى قسنطينة توقّفنا قرب قالمه على نهر سيبوس ، حيث كانت توجد مراع جميلة للخيل وعيون حارّة في منحدر تلّ صغير . وقد روى لي الهرب أن هناك بالقرب منها واديا لا يجرؤ أي مسلم على دخوله ، لأن زواجا محرّما قد تمّ فيه ، فعوقب الضيوف على ذلك وحولوا الى جبال مكورة التشكل كما تحوّلت القدور التي يتصاعد منها البخار الى حمام يغلي .ولا يزال الحمّام الى الآن يدعى حمام المسخوطين . وقد دخل عربي هناك أثناء اللّيل صدفة ، فرأى عددا كبيرا من القطع الزّجاجيّة ، ودون أن يفكّر في شيء ، أخفى في جيبه قسما منها ، ولكنّ بما أن طريقه كان بعيدا ، وأصبح الحمل يزعجه فقد رمى بها ثانيّة ، فلاحظ في أثناء ذلك أن الزّجاج يلتمع كالجمرات الملتهبة ، فانحنى في الحين ليرفعها ، وفي تلك اللّحظة تلقّى ضربات فظيعة من شيء غير مرئي . فجرى بعد ذلك إلى البيت ، وحين أدخل يده في جيبه وجد لحسن حظّه قطعة من الزّجاج ، الذي كان قد أخفاه فيه ، واذا به يكتشف بفرحة أنها قطعة من الذهب الخالص . وأسرع الجيران ، الذين روى لهم الحادثة ، الى عين المكان ، ولكنهم لسوء حظهم لم يجدوا زجاجاً ولاجمرا فضلا عن الذهب .

الفصل الثامن

حصار غير مثمر لمدينة قسنطينة من طرف الفرنسيين في نوفمبر 1836 م

لم نكد نعود الى قسنطينة ، حتى حمل عيوننا رسالة من المقدم يوسف ، أخبرنا فيها بأنه سيزورنا هو الآخر في وقت قريب ، فلم يرتح الباي لهذا الخبر ، ولذلك لم يقم في المدينة طويلا ، بل جمع أمتعته وكنوزه للمرة الثانية ، ونقل معسكره الى رأس العقبة شمال قسنطينة ورافقته في رحلته هذه . ولم تمض مدة طويله حتى جاءنا الخبر بأن الفرنسيين سيصلون بعد حين الى قسنطينة ، وشاهدنا بالفعل طلائع جيشهم في 21 نوفمبر.

كان الطقس رديئا جدا ، فقد تساقطت ثلوج كثيرة ، وكانت تذوب بعد لحظات وكانت الطريق غير معبدة ، فتحولت الى مستنقعات ، مما جعل الجيش يتقدم ببطء ويتعرض لعدة هجمات ، يفقد خلالها مدافعه وذخيرته . وكان قد ترك عنابة تحت قيادة اللواء كلوزيل في 13 نوفمبر ، ووصل فى نفس اليوم الى بوحرفه وعسكر في اليوم الثاني في محالفة ، لان الامطار كانت قد بدات تنزل بشدة ، وبلغ في يوم 15 وادي سيبوس قبالة قالمة ، وسار على امتداد الوادي عبر جبل السعادة ، وعبر يوم 19 وادي الزناتي ، حيث هوجم من طرف قسم من خيالتنا دون حدة ، وتكررت هذه الاشتباكات في أغلب الاحيان ، واخذت الطرق تفقد قرارها بسبب نزول البرد والامطار ، واشتدت الرطوبة والبرودة على الجنود لقلة الخشب وبلغت أعلى درجاتها عندما وصل الجيش مساء يوم 20 الى الصومعة ، وهي مرتفع يبعد حوالي ميلين ونصف عن قسنطينة . وبعد ظهورهم بوقت قصير حمل عربنا رقيبا فرنسيا شابا ، لاتتجاوز سنة الثامنة عشرة الى الباي في معسكره . وكانوا قد ألقوا عليه القبض وهو في طريقه الى المعسكر ، الذي كان يبعد بحوالى نصف ساعة ، لانه كان بصفته قناصا من قناصه الطليعة ، قد مرض ،

ولم يكن هناك طبيب يسعفه . فطلب مني أحمد باي أن أسأله عن مدى قوة الجيش وعن عدد مدافعهم ، وعفا عنه بعد أن أجاب عن ذلك بصدق ، ثم ندم الباي على ذلك ، وأمر – باعدامه فأعدم بطريقة غير لائقة

وفي 21 نوفمبر وصل الفرنسيون في الساعة الثانية بعد منتصف النهار أمام أسوار قسنطينة ، وفي الحين أرسلنى الباي ،وكان يثق بي كل الثقة ، تحت حراسة مشددة ، إلى المدينة ، لأدافع عنها وأحافظ عليها قدر المستطاع من الوقوع في أيدي الفرنسيين . ونظرا إلى أننا لم نستطيع الوصول الى أي باب من أبواب المدينة الأربعة ، لأنها كانت قد سدت وهوجمت من طرف خيالة العدو ، فقد حتم علينا أن نسلك طريقا ملتويا إلى الصخور الشمالية ، التي يوجد بها باب ، كان قد ثقب فيها ، يفضى الى القصبة حتى نتمكن من الدخول إلى المدينة . وقد حضرنا في الوقت المناسب ، إذ أن المدينة حوصرت بعد ذلك من طرف الفرنسيين من جميع الجهات . كانت طليعة الجيش قد عبرت الوادى الكبير الذي يمر شرق المدينة ، واحتلت كدية عاتي ، وهي مرتفع يقع مقابل الرحبة ، بينما أصبح الجانب الشرقي من المدينة مهددا من هضبة سيدي مبروك .

كان المقدم يوسف قد أوهم الفرنسيين بأن أهالي قسنطينة سيسلمون المدينة بمجرد أن يشاهدوا الجيش الفرنسي وقوى أملهم حين رأوا ، عند وصولهم ، الأبواب مفتوحة ، وعدد من السكان يتنزهون فوق جسر باب القنطرة . وقد ضللوا في ذلك غاية التضليل . فبرغم انه كان هناك ، الى جانب اليهود ، الذين يبلغ عددهم تسعة آلاف ، عدد من أعيان قسنطينة ، الذين كرهوا أحمد باي لقسوته ، يتمنون وصول الفرنسيين إلا أن أغلب سكان المدينة كانوا من الطبقة الفقيرة والمتوسطة ، ولذلك كانوا متعصبين ومعادين للفرنسيين الى حد كبير ، ولو بلغ عدد الجيش مليون رجل ، فانهم كانوا سيبذلون أقصى جهدهم للمحافظة على المدينة ، وكانوا يفضلون الموت على تسليم أنفسهم للفرنسيين . وكانوا قد أقسموا في المساجد كلها بأنهم على استعداد لخنق نسائهم وأطفالهم ثم البحث عن الموت في حراب الفرنسيين .

وبالاضافة الى ذلك كانت الاخبار تصل يوميا عن طريق الجواسيس ، الذين كانوا يؤكدون أن الجيش لا يزيد عدده عن 12 الف جندي ، ومدافعه لا تزيد عن 12 مدفعا . لذلك كانوا يذهبون للتنزهة خارج المدينة حتى وصول الفرنسيين ، وهم فرحون مبتهجون بأنهم سيحصلون على كل هذه الرؤوس في وقت قريب. وعادوا بعدئذ الى المدينة بأمر القائد ، وحصنت ثلاثة أبواب ، ولا سيما باب الرحبة ، الذي وقع عليه الهجوم الرئيسي . أما باب الوسط وهو باب الوادي ،

الذي كان يؤدي الى الباب المجاور ، فقد أغلق فقط ، وذلك للفرار منه عند الضروة ، وقد فعل علي بن عيسى ، وهو عدو للفرنسيين بقدر ما هو صديق للباي ، كل ما في وسعه لبث الشجاعة واثارة الغضب في نفوس السكان ، بينما حاول قائد الدار أو مولى البلاد وشيخ البلاد اقناع الشعب باستحالة المحافظة على المدينة ، ولكن المواطنين استاءوا من حديثهما أشد الاستياء .

ففي أثناء الحصار ، حملت اليهما العرب رسائل عديدة ، دعي فيها المواطنون الى التسليم فدعيا الى اجتماع عام في الجامع الكبير ، وأوضحا للاهالي بأنه من الافضل لهم أن يمكنوا الفرنسيين من دخول المدينة حفظا لارواحهم وأرواح أسرهم وحتى لاتهدم المدينة فوق رؤوسهم . وعندئذ هجم عليهما الشعب في غضب ،وبصق في وجوههما ،وهددهما بالخنق ان هما استلما مرة اخرى رسالة من الكفار ، وأخذ الرسالة ومزقها وداسها بأقدامه . وعندما سمع القائد بذلك ، امر بوضع الرجلين في القيود وأخبر الباي بذلك خارج المدينة ، وبعد انسحاب الفرنسيين عفى عنهما ، ولكنهما ألزما بدفع غرامة كبيرة .

ومن بين المريدين للفرنسيين رجل يدعى الشيخ العربي ، وهو كرغلي تبادل مع الفرنسيين عدة رسائل . وبما أنه لم يكن ينتظر استقبالا طيبا من طرف الباي بعد رحيل الفرنسيين ، فقد انضم الى الجيش الفرنسي ليفر الى عنابة ، ولكن العرب القوا عليه القبض وأعادوه الى قسنطينة ، حيث أمر الباي ، دون استنطاق طويل ، بتقييده والطواف به فوق بغل ، ثم شنقه في كوة مستعملة لاطلاق النار 29

وبعد غلق الابواب مباشرة ظهر امام المدينة عربي مرسل من طرف الفرنسيين وطلب الاستسلام ، فكان جواب الاهالي طلقة مدفع خلفه . وعندما اقتنع الفرنسيون بأنهم لا يستطيعون الحصول على شئ بالطرق السلمية ، بدءوا يضربون المدينة بالقنابل ، ولكنهم لم يستطيعوا هدم الاسوار ، لان عياراتهم كانت صغيرة جدا،وازداد الطقس رداءة ، فلم يكن في استطاعته الجيش أن يضرب حصارا طويلا حول المدينة ، ولذلك قام بمحاولة حاسمة ، ففي 23 نوفمبر حضر في الحادية عشر ليلا أربعة عشر نقابا قرب باب الرحبة بقصد نسف الباب بالبارود . كان القمر ساطعا ، فاستطاعوا أن ينفذوا عبر دكاكين الحديد ، التي تقع خارج الباب والتي كانت القنابل قد حطمت نصفها ، ووصلوا تحت قوس الباب . وانبعثت من فوق سور المدينة طلقات كثيفة من البنادق ، ولكن الرصاص لم يصب هدفه

ولم يكن هناك مدافع في باب الرحبة ، ومن ثم كان بعيدا عن مرمى مدافع الابواب الاخرى : وفجأة ظهرت فرقة من سلاح المشاة بمدفع ، رأيناه يلتمع في ضوء القمر ، فاطلقت

النار عليه ، ولكن دون جدوى لانه كان قد اختفى خلف البيوت المهدمة . وعلى حين غرة سمعنا طلقة . -- فاكتشفنا في الحال أن الرصاصة قد نفدت فوق قفل الباب الذي كان النقابون يعملون فيه ، ويحاولون أن يملأوا الثقبة بالبارود لنسف الباب في الحين . وحتى لو فرضنا أنهم نجحوا في ذلك ، فانهم كانوا سيجدون خلف الباب الخشبي قبة ، طولها 18 خطوة ، مشيدة بالجبس والحجارة الكبيرة ، تجعل التسرب منها مستحيلا ، لكن نسف الباب نفسه لم يتم فعندما أطلق العيار الناري ربط المواطنون الحبال حول المدفع ، ونزلوا بها السور ، وألقوا القبض على الاربعة عشر نقابا وقتلوهم فكان على الفرقة أن تتراجع بسرعة ، تاركة خلفها المدفع ، الذي رفع فوق السور في الليلة نفسها .

كنت اود من كل قلبي أن ارى المدينة في ايدي الفرنسيين الا اني لم يكن في وسعي أن أقدم لهم أية مساعدة في ذلك. وشاهدت ، بقلب حزين ، انسحاب الجيش في صبيحة اليوم التالي ، وكنت كما لو أن آخر أمل لي في النجاة من هذه الكلاب الدموية قد أراني ظهره. وكان من المؤكد أن يتم الانسحاب دون خسارة ، لو أن الجيش اجتمع كله في الليل ولم تبق المراكز الاماميه في مواقعها حتى الفجر. لقد اتاح ذلك لعلي بن عيسى أن يحيط الباي علما بظروف العدو ، فأمر الباي بفتح الابواب عند الفجر ، ومهاجمة العدو بالسيوف حتى يتمكن هو من مهاجمته من الخلف .

وقد نفذ هذا الأمر بدقة ، فاندفع الشبان والشيوخ ، وهم نصف عراة ، عبر الأبواب الى الخارج ، والسكاكين بأيديهم ، فاحاطوا بالمراكز الامامية ، وقتلوا من فيها ، وقطعوا رؤسوهم ، وحملوها الى القلعة ولحقوا بكثير منهم وهم هاربون فمسكوهم من شعورهم وضربوا رؤسهم . ودخل الاتراك والقبائل من جميع الابواب ، وهم ملطخون بالدماء من قمة الرأس الى أخمص القدم ، وكان في يد كل منهم ما بين أربعة وخمسة رؤوس ، وكان الحاكم على بن عيسى جالسا فوق القلعة ، فاجتمع في أقل من ساعة خمسمائة رأس فرنسي . ولم يستطع المدفعيون ، الذين لم يبق لهم عمل يقومون به ، السيطرة على رغبتهم في القتل وجمع المال ، فاسرعوا بدورهم الى الخارج لجلب رأس مسيحي ، فكنت أشاهد ، وقلبي يدمي ، عدد الرؤوس يتزايد باستمرار. وحمل كذلك ثلاثة من العرب أحياء ، وبعد أن أرغموهم على مشاهدة تلك المجزرة المريعة أعدموهم أيضا .

وكانت الفرق ، التي اتخذت مظهر تشكيلة مربعة ، محروسة بصورة أفضل ، الا أن عربات الامتعة والذخيرة ، وعددها حوالي مائة ، وقعت كلها بما في ذلك الجنود الذين كانوا يحرسونها .

في أيدي القبائل فقتلوهم ونزعوا عنهم ثيابهم. أجل، وحين لم يبق مسيحي واحد خارج التشكيلة المربعة ، هوجمت التشكيلة نفسها ، وكان الثلج والوحل العميق قد عاقاها عن السير بسرعة ، هاجمها الفلاحون والمشاة من جنود الباي من احدى الجهات ، بينما هاجمها هو وفرسانه من العرب والقبائل من الجهة الاخرى . وهكذا لقي حتفه عدد من الجنود المساكين الذين كانوا قد عجزوا عن السير نتيجة لما أصابهم من جروح وما اعتراهم من تعب ، بعد أن أرغم الآخرون على التخلي عنهم ، فتركوهم ليذهبوا ضحية القسوة الشنيعة . ووقع خمسة عشر منهم في يد الباي نفسه ، فعفا عنهم ، ولكنه أمر بأن يقيدوا وأن تسند اليهم أصعب الاعمال وأشقها .

وتراجع الجيش الفرنسي ، وهو يهاجم بهذه الطريقة ، مسافة أربع ساعات ، كان عليه أن يقطعها بشق الانفس . ونظرا الى أن الهجمات كانت تزداد حدة بصورة مستمرة فقد حاول الجنود في المساء ان يتحصنوا، ولكنهم لم يوفقوا في ذلك، اذ أن التربة كانت تسيح بمجرد أن تكون ، وذلك بسبب الرطوبة، ومن ثم لم يبق للجيش الا أن يقضي الليل كله عرضة لنيران العدو . وعند مطلع النهار واصل انسحابه، ولكنه أضطر الى ترك عدد من الجرحى والمتعبين ، فلقوا نفس المصير. وبما أن المسافة نفسها كانت قد أصبحت بعيدة، وصار من المزعج أن ينقل الناس الرؤوس المقطوعة معهم ، فقد رضي الباي بأن تقطع آذان القتلى وتحمل الى قسنطينة ضمانا للحصول على المكافأة . وبعد انسحاب الفرنسيين وصل في اليوم الرابع قبائليان الى المدينة ، ومع كل منهما عصا طويلة ، ربط بها خيط ، ثبتت فيه أكثر من أربعمائة أذن . وعاد الناس بعد ذلك ، ولكن الباي طارد الفرنسيين حتى مدينة غالمة ، التي كان لهم بها معسكر ، فاستطاعوا أن يتحصنوا ويستريحوا فيه . وعقب ذلك دخل الباي مدينة قسنطينة في موكب كبير .

وأقيمت أفراح حقيقية شبيهة بأفراح الهمج ، استمرت ثلاثة أيام ، وذلك ليحتفلوا برسولهم ، الذي هزم الفرنسيين في اعتقادهم . ووضعت رؤوس الأعداء خارج المدينة في مكان قريب ، وعلقت الاذان في عمود فوقها . وحملت الجثث من أرض المعركة الى المدينة ، فوضع النساء والأطفال الحبال في أقدامها ، ثم سحبت عبر الشوارع وصارت مشهدا من مشاهد التسلية العامة . وكان عدد كبير من النساء يسير خلف الجثث ويضربها بالعصي . وأخيرا فرضت عليهم الروائح الكريهة أن يحرقوا تلك الجثث في كوم كثيرة ، ولكني رأيت بعد شهر من ذلك رؤوسا وآذانا وأذرعا وأرجلا تسحبها الكلاب .

وبعد ان عاد الهدوء الى المدينة ، خرج الاهالى لجمع الالبسة والادوات التي تركها الفرنسيون وحملوها الى المدينة ، وأصبح المرء يرى الالبسة والاسلحة الفرنسية تباع في جميع الاسواق ، ولا سيما ألبسة المدفعيين ، الذين كانوا عرضة لهجمات الاعداء أكثر من غيرهم . وقد اضطر أحدهم الى البقاء ، فاختفى في كومة من التبن ، ولكن الجوع أرغمه على الخروج في اليوم الرابع ، فوقع في أيدي القساة . وكنت قد خرجت في اليوم نفسه من المدينة للبحث عن القذائف الفرنسية ، فشاهدت حشدا من الناس حول تلك الكومة من التبن ، فانجذبت انا الآخر الى هناك . كان المسكين عاجزا عن الوقوف فرجوت النمور الواقفين حوله والمسرعين اليه الايلحقوا به الاذى وان يتركونى اتكلم معه . ويالها من فرحة غمرت نفسه حين خاطبته بلغته : ورجاني أن أحفظ عليه حياته واقدم له قليلا من الخبز . لذلك رجوت الواقفين حوله مرة أخرى ألا يأذوه الى أن أعود من عند الباي ، فوعدوني بذلك . فذهبت اليه ورجوته أن يعفو عنه ، ولما رجعت بالعفو وجدت القساة قد كسروا رأسه بحجرة وقطعوه .

الفصل التاسع

تحصين المدينة - المحاصرة الثانية لقسنطينة واحتلالها من طرف الفرنسيين سنة 1837 - وضع المؤلف البائس - محظيات الباي - الاستسلام في حظيرة الأسود - استجواب في قسنطينة - الاستجواب الأخير في مارسيليا .

استأنفت عملي في حظيرة الاسود بمجرد أن سمحت الظروف بذلك . وكانت الحيوانات المسكينة قد عانت عناء كبيرا من الجوع ، لأنه لم يتفرغ لها أحد ، وقطعت سلاسلها باستثناء اثنين منها . وعبرت عن فرحتها ، عن طريق الزمجرة ، بعودة سيدها القديم ، وتركتني أربطها ثانية بسهولة وطواعية . ولكن اقامتي لديها لم تدم طويلا .

كان أحمدباي قد أدرك أن الفرنسيين لن يتأخروا في أن يتداركوا خطأهم ، ولذلك اتخذ احتياطته ليقاومهم بشدة أكثر في حالة ما اذا قاموا بحملة ثانية. فأمر باصلاح عربات المدفع ، واقامة تحصينات جديدة ، وتقوية التحصينات القديمة ، وتحصين المدينة بصورة عامة قدر المستطاع ، ودعاني ذات يوم وأخذني معه الى القصبة . وهناك قال لي : اعتقد ، يا عبد الرحمن ، أن هذا المكان صالح لضرب الأعداء اذا هم اتخذوا موقعهم فوق الجبل المقابل ، فعليك أن تقيم بطارية هنا ، تكون تحت تصرفك. ولاقامتها عليك أن تستخدم الاسرى الفرنسيين الخمسة عشر والعدد الذي تحتاج اليه من اليهود .

واقيمت بطارية من التربة المخلوطة بنبات النخيل ، كثافتها 18 قدما وطولها 20 قدما ، ولها كوتان لا ... [illegible] من مدفعين من عيار 24 ومدفعين من عيار 50 ، وانتهى بناؤها بعد مرور شهرين . ولم يسمح لي الفرنسيون الخمسة عشر أبدا استخدامي اياهم في هذا العمل ، ولم أنج فيما بعد من التهمة التي وجهت الي على هذا الاساس الا بشق النفس .

بقي الباي ، على غير عادته ، مدة طويلة في المدينة ، وذلك بسبب التحصينات التي كان يقيمها . وفي شهر ماي وصلت لاول مرة اخبار مفادها بان الفرنسيين قد بنوا الطرق ، واقاموا

معسكرات جديدة ، وأخذوا يزحفون ببطء ، وفي شهر يونية وصلت أخبار للمرة الثانية تقول بأن فرقا فرنسية جديدة قد وصلت ومعها عدد كبير من المدافع وعربات الذخيرة وأن الحملة ستتم عما قريب . وعندئذ جمع الباي كنوزه وخرج بقوة كبيرة لمقابلتهم ، غير أنه عاد بعد وقت قصير دون أن يحقق هدفه ، وعسكر على بعد ساعتين من المدينة ، لينتظر النتيجة التي لم تكن في صالحه هذه المــرة .

وبدأ الجيش الفرنسي حملته الثانية في بداية أكتوبر سنة 1837 ، وكان يتكون من ثلاثين ألف مقاتل ، ويحمل معه 36 مدفعا من العيار الثقيل ، ولذلك خافه أهالي قسنطينة أكثر مما خافوه في المرة السابقة . ومع ذلك فقد وضعوا ثقتهم في نبيهم محمد ، وتصوروا أن في وسعهم الحفاظ على المدينة ، ورفضوا في عناد كل العروض المناسبة للتسليم .

وعندئذ حاصر الفرنسيون المدينة من كل جهة ، ونصبوا فوق سيدي مبروك قبالة بطاريتي ثلاث بطاريات متنقلة ، وبدأوا يقذفون المدينة بالقنابل والصواريخ الكونغريفية . وكانت بطاريتي أكثر عرضة للنيران الفرنسية ، وبعد أن تبادلنا هكذا اطلاق النار مدة ثلاثة أيام ، كان أغلب رجال مدفعيتي قد قتلوا ، وكانت بطاريتي قد تحطمت .

وفي ذلك الحين طلب مني القائد أن أترك موقعي وأتوجه الى القلعة ، التي كان الفرنسيون يحاولون منذ يومين وليلتين احداث ثغرة فيها لنصب بطارية . وهناك سألني عن هدف العدو من ذلك ، وقال لي انه يعتقد أن الفرنسيين يريدون نسف المدينة ، ولكنهم لن ينجحوا في نسفها لانها مبنية فوق صخرة . ــ وقلت له الحقيقة ، غير أنه لم يصدق كلامي ، بل سخر مني .

وفي الليلة الرابعة وصل خمسة فرنسيين كانوا قد فروا من الجيش الفرنسي ، من بينهم ثلاثة أتراك ، ووقفوا تحت السور ، وطلبو منا أن نقدم لهم قليلا من المواد الغذائية لوجه الله ، فهم يكادون يموتون جوعا ، وأعلنوا أنهم يريدون الاعتراف بكل شيء ان وجدوا من يرحمهم ، فأمر القائد بانزال الحبال ورفعهم الى أعلى السور . وبعد أن رووا كل شيء بالتفصيل أمر القائد بقطع رؤوسهم فقطعت ورميت اجسادهم من فوق القلعة ، وعرضت رؤوسهم فوق السور .

في صباح اليوم الخامس بدأت البطاريات الثلاث المذكورة ، بالاضافة الى ثلاث أخرى خاصة بأحداث الثغرات في السور ، تقذفنا بشدة ، فاهتزت الاسوار وتهاوت الكوى المخصصة لاطلاق النار ، وكانت قطع من مدافعنا قد حطمها مع عرباتها رصاص العدو ، فتناثرت في الهواء ، وامتلأت القلعة بجثث المدفعيين ، حيث أصبح من الصعب المرور من بينها تقريبا .

وصرت في وضع خطر، فقررت أن أنزل بالحبل في الليلة القادمة، وأفر الى العدو. الا أن القائد الذي لم يضع ثقته في منذ أول وهلة واتهمني بأني سأستعمل كل الطرق لادخال الفرنسيين الى المدينة ، أمر بتشديد الحراسة علي ، وحرص هو نفسه على أن يكون دائما قريبا مني .

ودعا في هذه الليلة نفسها من بقي حيا من المدفعيين وقرأ علينا أمر الباي التالي : « اذا لم يقم عبد الرحمن بواجبه وأظهر أي ميل الى المسيحيين ، فان على القائد أن يضرب رأسه قبل دخول الفرنسيين . » وعندئذ أصبح الموت بالنسبة لي أكثر من مؤكد . فرأسي سيقطع اذن حتى ولو قمت بعشرة أضعاف واجبي . واذا أنا وقعت بصفتي مدفعيا أسيرا في أيدي الاعداء ، فان ما ينتظرني ليس أحسن من ذلك . فما العمل اذن ؟

لقد وقفت خلف مدفعي وأخذت أطلق القذيفة بعد الاخرى حتى المساء دون توقف ، ولكنني كنت أرسل القذائف فوق رؤوس العدو، وهو ما لم يلاحظه العرب، اذا كان يرضيهم أن يكثر دوي الطلقات ! وهكذا جاء اليوم السادس من الحصار: كانت الثغرة قد فتحت، ومدافعنا قد أسكتت باستثناء مدفعين ، وكان الاحياء من المدفعيين قد شعروا بالخوف ففروا كلهم ليلا من القلعة وذهبوا الى بيوتهم ، وفي الخامسة صباحا أطلقت أنا أيضا آخر طلقة . كانت كوتي قد أصيبت ، واتسعت بمقدار 8 أقدام ، وكنت واقفا مع تركيين ، لم يكن أي منهما على استعداد لمسك طمار المدفع وحشوه ، فلم يبق لي عندئذ الا أن أقوم بذلك بنفسي ، واستغرق حشو المدفع نصف ساعة ، ومن أثناء ذلك كان القناصة يوجهون النار نحونا بشدة وحين أردت وضع رصاصة لم تكن مرتبطة بالبارود ، وقعت قذيفة للعدو تزن 12 رطلا ، حطمت طمار المدفع في يدي ، وأصابت قطعة منها ركبتي اليمنى ، وقطعت جزء من رأس المدفع ونفذت في جسم التركي ، الذي كان يستعمل البطارية رقم 4، وطوحت بنصف رأس المدفع ، الذي كان يحمل رقم 3 ، بعيدا .

وبذلك انتهى كل شيء . ففر القائد بن عيسى ، وانسحبت أنا الى حظيرة الاسود ، لأنتظر نهايتي فيها . وفي صبيحة اليوم السابع هجم الفرنسيون ، وتسلقوا أسوارنا بعد صعوبات قليلة . وكان الـ... ـد وضعوا لغما في باب الواد ، اذ أنهم كانوا قد فتحوا بلاط الباب الداخلي وأخفوا البارود تحته ، وأعادوا الحجارة الى أمكنتها . فأدى انفجار هذا اللغم الى قتل عدد من الفرنسيين ، وبعدئذ بدأوا الهجوم بالحراب المسددة ، فحاول أغلب الأهالي النجاة بنسائهم وأطفالهم عن طريق الهرب ، الا أنهم لم ينج منهم الا القليل . فقد كانت الابواب كلها مغلقة ولم يكن هناك سوى ممر ضيق يفضي الى الحرية عبر صخور منحدرة .

وأراد الناس جميعا أن يسلكوا هذا الممر دفعة واحدة ، ولقلة الحذر سقط الواحد منهم بعد الاخر في هوة عمقها ستمائة قدم ، فشوه بعظهم وقتل بعضهم الاخر . وأسرعت كذلك من السراي مجموعة من محظيات الباي الى هذه المنطقة ، ورمين بأنفسهن طواعية ، حتى لا يقعن في أيدي المسيحيين ، في منحدر تلك الصخور . ومن بين موتي هذا اليوم مولى البلاد ، الذي كان قد أظهر مودته للفرنسيين أثناء الحصار السابق بكل وضوح ، ولم يترك في هذه المرة بطاريته ليلا ونهارا خوفا من انتقام الشعب منه . لقد قتل ، حسب الاخبار المؤكدة برصاصة مدفع ، عندما هاجم الفرنسيين الثغرة المذكورة .

أما زميله شيخ البلد فقد اختفى خلال ذلك الوقت كله في مسجد ، ولم اره ابدا لا في الثغرة ولا في المدينة ولست أدري أهو الآن حي يرزق أم انه انتقل الى رحمة ربه . كان رجلا عجوزا في حوالي السبعين من عمره ، وهو أكبر رجال الدين الثلاثة مقاما في المدينة ، فكان بصفته هذه يرأس المسجد ، الذي يلجأ اليه المجرمون طلبا للحماية والامن ، ويشغل الى جانب ذلك وظيفة مستشار أول للباي .

وكان الشعب في السابق يجله كثيرا ، وكان كل من يلقاه يقبل يده أو صدره . وكانت له أيضا محكمته الخاصة ، فاذا رفع أحد اليه دعوى ، فانه يحاول أن ينصفه ويعيد اليه حقه، دون أن يضطره الى اللجوء الى الباي .

وخلال نهب المدينة ، الذي استمر اثنتي عشرة ساعة ، وصل الي أيضا عدد من الفرنسيين كانوا قد دخلوا القصر ، وكانت قنبلة قد انفجرت وحطمت نصف بابي ، فسهل عليهم الدخول منه الى الحظيرة ، واستولى عليهم الفزع والدهشة عندما شاهدوني في الساحة بين أسودي ، ولي لحية طويلة كالتركي ، ولم يجرؤ أحد منهم على الاقتراب مني . ونادوني طالبين مني الاستسلام غير أني أشرت ، حتى لا أفشي سري المسيحي ، الى الاسود فاجابتهم بالزمجرة والحركات الغاضبة .

ومرت فسحة من الوقت ، وبعدئذ مسك أحدهم البندقية وصوبها نحوها ، وفي لحظة واحدة وثبت الاسود مزمجرة بشدة ، وفك عزيزي قيده ، ولكني استطعت لحسن الحظ ، حين رأيت الجندي ينزل البندقية ، أن أمسك بالسلسلة وأعيد الشبل الثائر الى الدائرة بعد أن كان قد ابتعد عني بمسافة . وبعد ذلك أفهمت الفرنسيين بكلمة أو بكلمات فرنسية مكسرة أنني أريد أن أسلم نفسي الى القائد ، فوافقوا على ذلك ، وأقاموا الحراسة أمام الباب ، وبقيت في الساحة الى أن دخل المدينة الجنرال فالي ودوق دي نيمور . فتقدمت اليهما في الحين ، ورويت

لما قصتي في كلمات قلائل فاخذاني معهما الى قصر الباي ، حيث كان علي أن أجيب على أسئلة الجنرالات المجتمعين ، عما اذا كنت أعرف أنجليزيا أو مسيحيا ما ، كان يشتغل مدفعيا عند الباي وبني له بطارية في القصبة .

كان هذا السؤال قد ألقي علي بطريقة خطيرة ، ولذلك ما كان يجوز لي في آخر المطاف أن أعرض حياتي للخطر مرة أخرى باعترافي بالحقيقة ، ولم أكن في تلك اللحظة قد عرفت بعد الخسارة الكبيرة التي مني بها الجيش الفرنسي ، وهي المتمثلة في سقوط الجنرال دامريمون الذي أصابته قذيفة مدفع واخترقت جسده ، غير أني كنت أعرف أن عملية احتلال قسنطينة قد كلفت الفرنسيين كثيرا من الرجال الشجعان . وهل كان في امكاني آنذاك أن أتصور أن المنتصرين الساخطين سوف يضعون عراقيل في طريق رجل عديم القيمة مثلي أو أتصور أنهم سوف يقيمون وزنا لاعمالي السابقة ، التي أرغمت عليها ارغاما ، وكل ذلك من أجل رد الاعتبار للكرامة الفرنسية التي جرحتها الهزيمة السابقة ؟ ان العاطفة لتكون في هذه اللحظات أقوى من العقـــل .

لقد أجبت على السؤال السابق بالنفي التام ، ولم ألتزم الصدق الا حين أحجمت ، رغم الالحاح الشديد ، عن الاعتراف بأن مدفعيا انجليزيا قد سبب للفرنسيين متاعب كثيرة . وأطلق سراحي بناء على هذا الجواب ، وأرسلت في الحين مع الفيلق الثاني الى عنابة ، ورحل معه أيضا عدد كبير من الحضر ، الذين كانوا يقيمون سابقا في عنابة أو الجزائـــر وفـــروا الى قسنطينـــة .

كان طريقنا هو نفس الطريق الذي قطعته مع أحمد باي في ربيع سنة 1836 ، الا أنه أدخلت عليه منذ ذلك الحين اصلاحات كثيرة . وكان هناك على مسافة ست ساعات من قالمة متراس ذو بيوت احتياطية وخيام ، يتسع لعشرة الاف جندي . وكانت قالمة نفسها قد حولت الى معسكر حصين ، وكانت قبل ذلك عبارة عن اطلال ، وأضيف اليها أيضا عدد من التحصينات . وبعدها بثماني ساعات وجدنا متراسا آخر يشبه المتراس السابق . وعلى مسافة أربع ساعات من عنابة يوجد المعسكر الكبير الحصين ، معسكر الجنرال يوسف (كان الفرنسيون قد عينوه بايا لقسنطينة) ، وكنا قد حاصرنا هذا المعسكر في أيام أحمد باي . وقد أصبحـــت عنابة الان ، بعد أن أضاف اليها الفرنسيون بنايات أخرى وجملوها ، مدينة صغيرة جميلة جـــدا .

وتقع عنابة في ميناء جيد ، وتوجد بالجانب البري منها دكاكين وبيوت احتياطية ، تسكنها الفرق الفرنسية ، ولها في أحد جوانبها جبل عال محصن ، يمكن أن تنطلق منه القذائف لتصيب المدينة والميناء.وفي الجنوب توجد في سهل خصب على البحر بساتين جميلة.أما في الناحية الغربية فان الاطلس الشامخ يوصل غاباته السوداء بالمدينة .

وأبحرت مع أحد التجار الى مرسيليا ، فذهبت الى نائب الحاكم العسكري لاخبره بوصولي وأطلب تأشيرة السفر الى الحدود الالمانية ، وبعد أن قرأ أوراقي عدة مرات ، تأملني ، وأعاد قراءتها ، ثم نادى كاتبا في الغرفة المجاورة ، وهمس شيئا في أذنه ، وأخذ بعد ذلك يتأملني من قمة رأسي الى أخمص قدمي . ولم أتبين وضعي على حقيقته الى أن دخل الغرفة فجأة عدد من الجنود ،.وسلمت اليهم مع أوراقي ، فأخذوني الى القيادة العامة .

وهناك استنطقني عدد من الضباط اكثر من مرة وسالوني عما اذا كنت قد جئت من قسنطينة ، وما هي المدة التي قضيتها أسيرا فيها ، وماهي الاعمال التي كنت أقوم بها ، وهل عرفت بروسيا من مدينة ايرفوت ، يدعى شلوصر ، كان مدفعيا عند أحمد باي ؟ فأجبت بأني كنت قد تعرفت عليه ، ولكنه فر مع احمد باي الى الصحراء .

فتعجبوا من ان مواطني واسمي مطابقان تماما لوطن واسم ذلك الشخص الذي سالتهم الجزائر عنه . فاجبت قائلا : مع فرق واحد وهو اني ادعى جان لوي شلوصر في حين ان مدفعي الباي يدعى فندلين.والحقيقة أني كنت منذ مدة أخشى أن ينتقم مني الفرنسيون الخمسة عشر ، الذين بنوا بطارية القصبة تحت اشرافي . ولذلك بدلوا اسمي الشخصي الذي كانوا هم وحدهم يعرفونه بالاسم المقدم للسلطة . لقد ساعدتني هذه الحيلة على حصولي على حريتي .

وكان علي أن أضحك من كل قلبي من التناقضات التي وقعت فيها الجرائد بسببي ، فقد كتبت جريدة عن وجود فندلين شلوصر ، وكتبت أخرى عن وجود جان لوي شلوحر بقسنطينة ، وأكدت جريدة ثالثة أنها علمت من مصدر أكيد أن فندلين المذكور قد فر الى الصحراء قبل سقوط قسنطينة أيها الناس الاعزاء،لكم أن تبتهجوا لانكم تستطيعون الجلوس في بيوتكم في هدوء وتكتبون للجرائد ، ولكن لا تأخذوا رجلا مسكينا ، اذا كان هو الاخر قد مارس الكتابة مثلكم ، لانه يريد في النهاية أن يحظى بالراحة والهدوء .

الفصل العاشر

أخبار عن رفقاء المؤلف أيام المحنة .

بعد أن رويت لقرائي أخباري الخاصة ، ولعلي فعلت ذلك بتفصيل أكثر مما كانوا يتوقعون ، أرى من واجبي أن أفي بوعدي للرفاق الذين كانوا معي في الاسر وأذكـــرهـــم هنا بصـــورة مختصـــرة .

بالاضافة الى بيرنهارد تسابه ، الذي رقي في الفترة الاخيرة الى منصب مدفعي وترك قسنطينة بعد احتلالها وانتقل الى خدمة أحد القواد ، لا أعرف من أسماء زملائي سوى اســـم فالك ، الذي ولد في قرية قرب بابنهايم ، واسم بلجيكي ، يدعى آني ، وقد ولد حســـب قوله في نواحي لوكسنبورغ ، ثم ميخل ، وأصله من منطقة فولدا ، وفريدريش ايتس الايبرفيلدي وبرايتنشتاين الهامبورغي ، وفاو الترييي ، ولومر ، وهو من الراين الاسفل ، وصند الدريسدني ، بالاضافة الى فرنسيين ، وهما غابي وبيغو الباريسيين ، وايطالي يدعى بارديني . وكان هناك أيضا شخصان ، لم أعرف اسميهما ، لاننا لم نكن ننادي بعضنا بعضا في قسنطينة الا بالاسماء العربية التي أطلقت علينا ، وكان أحدهما شابا متوسط القامة ، أسود الشعر والعينين ، كانـــت مهنته الخياطة ، وأصله من مدينة ماينينغن ، وكان قد قطع رأسه عندما حاول الهرب سنة1833. أما الاخر فكان عاملا منجميا ، ولد قرب كونغسي بمنطقة تورينغ . كان قد ترك قسنطينة سنة 1834 . ومعه ادوية حضرها بنفسه ليبيعها للفلاحين المقيمين حول المدينة . الا ان خبره وصل الى الباي . فارسل خلفه الجنود وامر بقطع راسه على مسافة ساعة من المدينة ودفع عشرين ريالا ثمنا لراسه .

وكان من المفروض أن تقطع الكلاب لحم فالك مثل أنطون غيبهارد ، وذلك بسبب فراره من قسنطينة ، ولكن الباي عفا عنه ومات بعد أشهر في قسنطينة جائعا بائسا - واعدم آني كذلك خارج المدينة لمحاولته الهرب . أما ميخل فقد توفي سنة 1834 اثر مرض خطير تسبب فيه فيما قيل الحنين الى الوطن ، ولست أدري كيف تم ذلك .

أما ايتس و برايتنشتاين فقد أتيح لهما ، بعد ان عانا معنا من البؤس والشقاء ، أن يفرا في آخر الامر الى الجبال مع القبائل ، وبقيت كل محاولات الباي في العثور عليهما بدون نتيجة ولا أستطيع أن أذكر شيئا عن حياتهما بعد ذلك . ـ كان فاو ولومر قد وصلا الى قسنطينة سنة 1833 ، وحين وجدانا في السجن ، نعيش في شقاء كبير ، وضعا خطة للنجاة من مصير مشابه ، فادعيا أنهما طبيبان ، والاطباء غير معروفين في تلك المنطقة تقريبا ، ونظرا الى أنه لم يستطع احد امتحان معلوماتهم ، فقد أمر الباي باطلاق سراحهما ، وقدم لهما غرفة ليعدا فيها أدويتهما بمساعدة الباي .

وأقبل الناس الى عيادتهما من المدينة وخارجها ، فقد وضعوا ثقتهم في طبيبهما لانهما أوربيان ، ونجحا في معالجتهم لان أمراضهم كانت من النوع الخفيف ، ووجدت فيما بعد حالات عجزا عن معالجتها ، ، فأوشكا أن يقعا في الفخ . كانت قسنطينة مدينة مليئة بالعميان والمشوهين بالولادة ، فلجأ هؤلاء كلهم الى الطبيبين الاوربيين اللذين لم يصرفا أحدا بدعوى أن مرضه لا علاج له ، بل انهما كانا يعدان الناس بالشفاء ويطلبان منهم دفع مبالغ مسبقة ، وحين لم يؤد العلاج الى نتيجة شكوا بهما أولا الى الباشحمبا ، ثم الى الباي ، الذي غير بعدئذ رأيه في حسن نيتهما ، فكان عليهما أن يكونا حذيرين الى أبعد حد .

وتزوج لومر فتاة عربية ، ومات بعد ذلك فقيرا معدما . أما فاو فقد استمر يمارس مهنته الطبية لمدة طويلة ، وتبناه طالب ، يدعى أحمد بن العابد ، كان له مركزه واحترامه في البايلك وعندما جمع ثروة طائلة ، صار قذى في عين الباي فأخذ يطارده الى ان وقع أخيرا في يده ، ونظرا الى أنه لم يكن يحق له أن يقتل الطالب ، فقد جرده من ثروته كلها عقابا له . فاعتزل ابن العابد الناس في فقره ، وآوى في بيته فاو هذا ، وعينه ليكون زوجا لابنته فيما بعد ، فأخذ يعلمه التعاليم الاسلامية ، وطهره ليجعل منه مسلما حقيقيا .

وآثارت هذه العملية سخط الطاغية وجشعه ، فوضع الاسرة كلها تحت المراقبة السرية ثم وقعت حادثة تتعلق بفاو ، فتقرر على أساسها مصير الاسرة . فقد مرضت أم باي سابق

فجأة ، وكانت تعيش في قسنطينة ، فالتجأت الى فاو لانها لم تجد طبيبا آخر . فأعدلها عددا من الادوية ، الا أنها ماتت بعد وقت قصير لسبب ما ، أو ربما بسبب هذه الادوية نفسها . وكانت تحمل في العادة عددا من الخواتم النفسية في أصابعها ، وحين أسرع اليها أقاربها ادعوا أن خاتما منها قد فقد ، واتهموا فاو بذلك لانه قضى معها بمفرده عدة أيام . ولكن فاو كان بريئا ، فقد سرق من أصبع الميتة من طرف قريبة لها ! .

غير أن أحمد باي وجد في هذه الحادثة أيضا مناسبة للانتقام من الاسرة المسكينـة ، فأرسل الحرس لالقاء القبض على فاو ، الا أنه أخبر بذلك مسبّقا ، فهرب الى الجامع الكبير ، وغادر المدينة بعد أيام . وكان يفر من قرابة الى أخرى ، الى أن نجح في الوصول الى الصحراء ، وهناك آواه عربي غني ، وأتاح له ممارسة عمله من جديد . ولكن الباي علم بمحل اقامته ، ولما لم تكن له سلطة على هذه المنطقة ، فقد راسل ذلك العربي وطلب منه أن يرسل اليه الهارب حيا أو يوجه اليه رأسه مقابل 200 ريال . الا أن هذا العربي ، الذي كانت له طبيعة تختلف عن طبيعة أمته ، لم يفضل أيا من الامرين وانما ساعده على الفرار الى تونس حيث صار يتمتع ، كما علمت من رجال القوافل ، بالسعادة التامة .

وكان لا بد أن يعاقب المربي على ما فعله ابنه ، فقد أمر أحمد بحمله ليلا من بيته ووضعه في السجن ، وافتك من العائلة أثاثها وبقية أموالها ، ووضع أوراقه كلها بين يد لجنة لفحصها ، فلعل بينها مراسلات سرية أجراها مع الفرنسيين.حقا ان خيانته لم تتأكد ، الا أن أوراقا أخرى خاصة بفاو ومكتوبه بالالمانية قد ظهرت للعيان ، ومن بينها رسالة مختومة ، تحمل عنوان القنصل الانجليزي في تونس . وثار شوق الباي لمعرفة ما تتضمنه تلك الرسالة ، فاستدعاني في الحال وأمرني بقراءتها في حضوره وترجمتها .

كان قد عرف العنوان ، لانه كان مكتوبا بالحروف اللاتنية ، فاستطاع مماليكه ، الذين كانوا يقرؤون ويكتبون اللغة الايطالية ، أن يفهموا كلمتي : قنصل وتونس . وسألني ، وهـو يريني الرسالة المفتوحة : «ولكن أية لغة هذه ، فاجبت» لغة المانية فقال : وما هذه اللغة ؟ أهي فرنسـية انجليزية ، فلا مندية ، هولندية ، دينماركية ؟ ونطق بهذه الكلمات كلها بصورة غير واضحة ، ولكن بطلاقة تامة ، وكانت تنقصني في تلك اللحظة الكلمة المناسبة ، فلم أستطيع الاجابة الا بالنفي فقال : اذن النمسا . ولم يكن الجزائريون يعرفوننا نحن الالمان الا بهذا الاسم . ولتأكيد ما يدعيه أحضر قطعة نقدية عرفت فيها العملة النمـاوية .

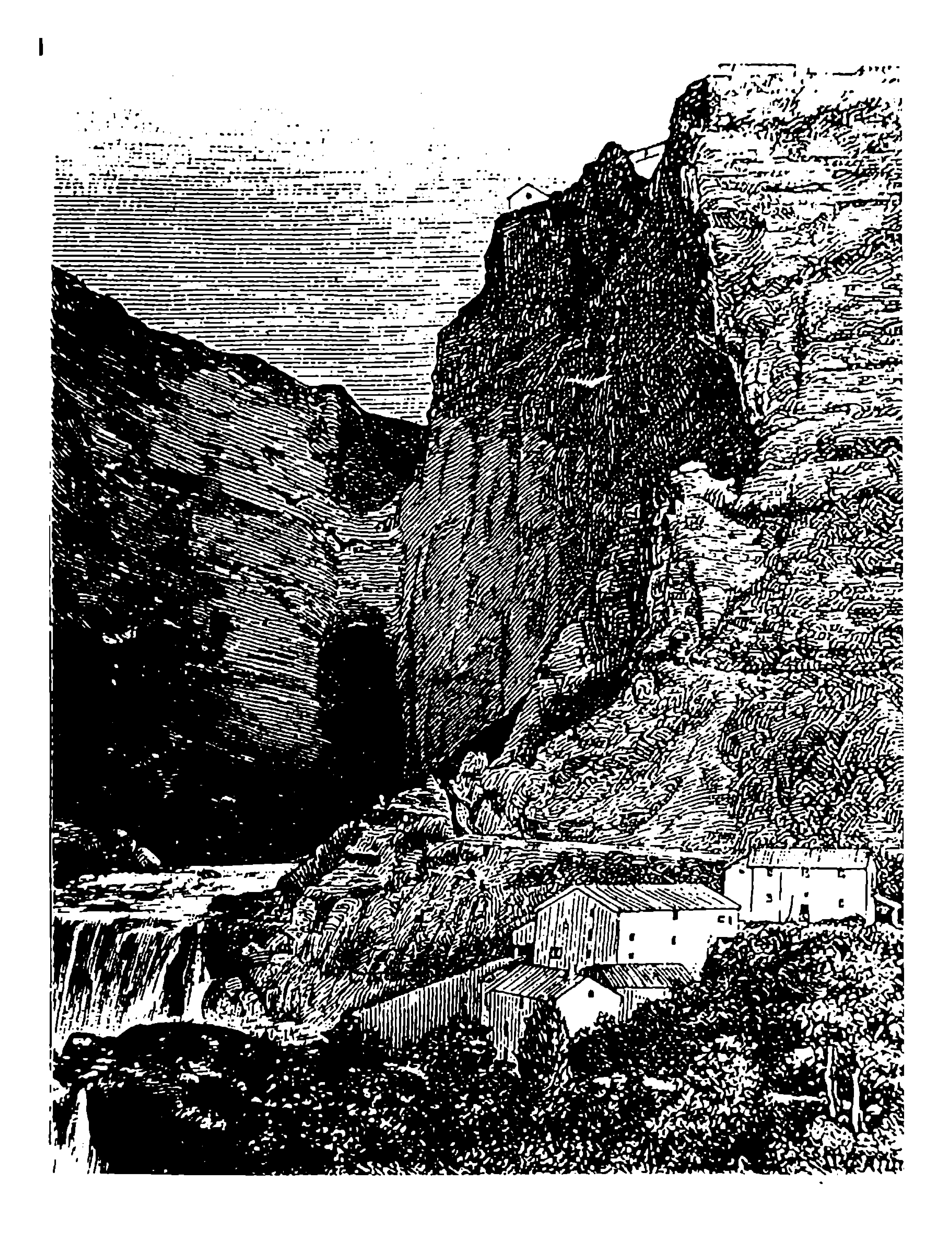
وقرأت الرسالة ، فلم أتمكن من اخفاء فزعي لمحتواها الا بصعوبة : كانت تتضمن طلبه من القنصل الانجليزي الاهتمام به والعمل على اطلاق سراحه ، ويصف فيها بشكل رهيب احمد باي وطغيانه . وقرأت الرسالة عدة مرات وانا افكر في الجواب الذي اجيب به الباي . لم يكن من حقي أن أخبره بالحقيقة ، لانه ، وهو الرجل المتعطش للدماء ، سوف يأمر باعدام أحمد بن العابد في الحين . فادعيت اذا بأن فاو يطلب فيها من القنصل أن يرسل اليه عددا من الادوية . فحرك أحمد باي رأسه ، وعندما أكدت له صحة ذلك عدة مرات ، صدقني في النهاية وصرفني ، الا أن الطالب المسكين أرغم على البقاء في السجن ، الى أن حل الوباء بقسنطينة في السنة التالية ، وأهلك عدة آلاف . وعندئذ أطلق سراح عدد كبير من الاسرى ، وكان من بينهم احمد بن العابد . أما صند فكان قد جاء برفقة سايفرت الى قسنطينة أثناء ظهور الوباء وكانا قد طهرا في الطرق غصبا عنهما من طرف العرب ، وصارا مسلمين وقد وجد صند بعد ارتفاع الوباء مناسبة للتقرب من الباي ، فجعله صانعا للاسلحة ، وكان يجله لذلك ويرى فيه جوهرة لم يملكها أبدا . فقدم له معملا وشيئا من المال ليبدأ عمله . ولم تمض الا فترة قصيرة حتى اشتهر ، وتزوج بعد حين فتاة عربية ، وحين احتل الفرنسيون قسنطينة ترك زوجته وأطفاله فيها وعاد مثلي الى وطنه .

وكان سايفرت قد هرب فيما بين سنتي 1836 و 1837 ونجح في الوصول الى تونس وقد رجع ، حسب ماسمعته فيما بعد ، الى وطنه ، أماجالي وبيغو اللذان حملا الينا أسرين سنة 1833 ، فقد أمرهما قائد الدار ذات يوم بالقيام بعمل خاص ، فاغتنما تلك الفرصة للفرار فوصلا الى منطقة مولى الشقفة الجبلية ، وهو قبائلي وجيه واعتقلا هناك ، وبعد أن طرحت عليهما أسئلة كثيرة ، من بينها من أين جاءا والى أين يريدان الذهاب ، اعتبرا اسيرين واتخد قرار بشان اعادتهما الى قسنطينة وعندئذ ادعيا انهما مسلمان . فطلب منهما القبائل المجتمعون ان يقسما على ذلك ، ثم نزعوا عنهما القيود ، الا انه عليهما أن يثبتا ، وهو أمر كان يعني بالنسبة لهما الحياة أو الموت ، إنهما مطهران .

وكان بيغو مطهرا ، ولذلك لم يتردد في اطلاعهم على ذلك أما جابي فكان لا يزال مسيحيا . وبما انه رفض ان يكشف عن عورته . فقد ارغمه الفلاحون على ذلك . وأخذوا يصرخون بشدة عندما عرفوا الحقيقة . وقالوا لبيغو : امض في سبيلك ! فذهب ولكنه توقف على بعد خطوات ليرى ما سيحدث لرفيقه . فمسك القبائل الحجارة والعصى والاسلحة وهجموا عليه . وأخرج أحدهم مسدسه وأطلق النار فأصابه في جنبه الايمن ، ثم ساروا به حوالي مائة

خطوة وقطعوا رأسه بعد عذاب أليم في أحد الادغال . وجاءنا رأسه الى قسنطينة ، ووصلتنا كذلك قصة هذه الحادثة المؤلمة ، واستلم القتله المكافأة العادية من الباي .

وكان لومبر ديني شابا شهما ، هادىء الطبع ، رضي بمصيره في صبر ، وكان يؤدي الصلاة بصفة مسلما ، فنال لذلك حظوة عند رؤسائنا الذين أوصوا به الباي خيرا ، فعين خادما في بيت من بيوت المماليك ، وكان يتمتع بما يتمتع به هؤلاء ، وكان عليه ، بالاضافة الى تنظيف عزب ذلك البيت ، أن يغسل ممرات غرف الداي ويدعكها ، ويقوم بكثير من الاعمال القذرة قرب هذه البناية . وقبل وصول الفرنسيين أخذه الباي معه الى المعسكر ، وأرغمه على الفرار معه أيضا الى الصحراء . كان في ذلك الحين أعز أصدقائي ، فودعني في حنان وراح يشكو لي ، والدموع في عينيه ، من محنته ، وقد حاول بجميع الوسائل الاختفاء في المدينة في انتظار احتلالها ، الذي كنا متأكدين منه . الا أن جواسيس الباي لم يغفلوا عن حراسته لحظة واحدة ، فحتم عليه أن يطيع أوامر سيده ، ولم أسمع عنه بعد ذلك شيئا .



صخرة قسنطينة

الفصل الحادي عشر

وصف مدينة قسنطينة ونواحيها .

تقع مدينة قسطنطينة ـ هكذا يسميها التركي ، أما العربي فيدعوها قسمطينة ـ فوق صخور وعرة ، تحيط بثلاثة ارباعها ، وفي سفح هذه الصخور يسيل نهر عرضه حوالي 150 قدما ، وعمقه ثلاثة أقدام ، ويطلق عليه الاهالي اسم الوادي الكبير ، ويأتي من الجنوب الشرقي ، ويتصل على مسافة ربع ساعة من المدينة بوادي الرمل ، كما يسميه العرب ، أووادي البرميل كما يسميه القبائل ، في الزاوية اليمنى ، وتتجه عند زاوية المدينة الجنوبية نحو الشرق ، وهكذا يمر بالجهة الجنوبية والشرقية والشمالية من المدينة بين صخور عظيمة ، يتراوح علوها يمنة وسرة ما بين أربعة أقدام وستمائة قدم ، وتتباعد عن بعضها في أعاليها بمقدار ثمانمائة قدم ، ويأخــذ طريقه بالتالي في الشمال الغربي من المدينة .

ولذلك لا يمكن أن تهاجم مدينة قسنطينة من الناحية الشرقية ، ولها أربعة أبواب ، وهي باب القنطرة ، الذي يقع في الشرق ، ولكنه يتجه نحو الجنوب الغربي ويؤدي اليه فوق هوة الصخور جسر حجري قوي يقوم فوق ثلاثة أقواس ، يقال أن الإسبان قد بنوه قبل مدة طويلة أما الابواب الثلاثة الاخرى فتقع في الجنوب الغربي في صف واحد ، يبعد الواحد منها عن الاخرى بحوالي 200 خطوة ، فيقع في الناحية الغربية باب الرحبة ، وقد أصبح القسطنطينيون منذ سنة 1836 يطلقون عليها اسم الباب الجديد ، لانه كان في السابق بابا بسيطا ، ولكنه قوس الان بقوس وباب ، وقربه بطارية تحتوي على خمسة مدافع .

أما الباب الشرقي ، الذي يدخل الوادي منه ، فهو باب الجابية ، وباب الوسط هو باب الواد . كانت هذه الابواب كلها تتجه نحو الخارج ، بحيث كان في وسع المرء حتى سنة 1836

أن ينظر بعيدا عبر الباب المفتوح ، وبعد أن أطلق عليها الفرنسيون النار بني أمام كل منها قوس كثافته 12 قدما ، فلم يعد من الممكن أن تصيبها القذائف مباشرة . والمدينة مرتفعة في الزاوية الشمالية التي يغادرها منها النهر ، بالنسبة للارض المنبسطة ، ولكنها أقل علوا في الجنوب الشرقي وأكثر انخفاضا في الجانب الغربي ، وتوجد في جميع جهاتها طرق رديئة بسبب الرمال العميقة . والمدينة محصنة في هذا الجانب بواسطة أربعة حصون ، وأعلى نقطة فيها هي القصبة .

اذا دخل المرء المدينة من باب القنطرة ، فسيصل أولا على بعد ألف خطوة الى رحبة قطرها ستون خطوة ، وتوجد عن يمينها وفوقها قليلا صخرة ، أقيم فوقها سنة 1836 حصن يحتوي على مدفعين . ومن هذه الرحبة يصعد الشارع نحو الشمال في اتجاه باب القصبة ، التي تقع الى الشرق منه بمسافة قصيرة . وفي وسط هذا الشارع يقع سوق السلاح ، ويدعى سوق العصر أيضا ، وحتى هنا يمكن أن تمر به العربات ، ولكنه يتجه بعد ذلك نحو الشمال ويصبح عبارة عن زقاق ضيق ، وهناك وعن يساره ثلاثة شوارع تمتد أفقيا ، أحدها يفضي الى باب الماء ، فيؤدي أولا الى سوق العسل ، ثم الى وسط الشارع والمدينة ، ويمر قرب دار الباي القديمة .

والشارع الافقي الثاني يمر عبر الرحبة المذكورة الى يسار سوق السلاح مباشرة ، ثم يتجه نحو باب الجابية ، فيمر أولا قبالة سوق العسل عبر سوق الجلد ، ويمر في وسطه بسوق القمح ويمتد الشارع الثالث من الرحبة على امتداد سور المدينة نحو باب الجابية ، ويحتوي ، مثل قسم من الشارع السابق وهو الواقع فيما بين الباب وسوق القمح ، على عدد كبير من الحمامات العامة والمقاهي . وهذه الشوارع الافقية ترتبط فيما بينها بعدد كبير من الازقة المتقاطعة ، لا أريد أن أذكر منها الا أهمها ، هناك زقاق عريض ملتو ، يمتد من الشارع المذكور أخيرا نحو سوق القمح ، ويمتد من دار الباي القديمة زقاقان هامان في زاوية حادة ويمضيان معا الى باب الماء . والزاوية الواقعة بينهما ، وهي مليئة بالازقة الصغيرة ، تدعى كلها سوق السراجين ، إذ تطرز فيها السروج وتعد المصنوعات الجلدية الملونة ، والى جانب سوق القمح مباشرة توجد دكاكين الحدادين ، وبعدها بقليل حوانيت الاقمشة التي يملكها اليهود . ويوجد هناك حيث يجتمع الزقاقان سوق صغير للخبز ، وخلفه ، في اتجاه باب الماء ، توجد دكاكين العطارين المسلمين .

ولا يجوز أن يحمل في الامكنة التي يمر بها الزقاق قرب دار الباي القديمة ميت أو كفن وهناك زقاق آخر أفقي يمتد من دار الباي القديمة ، ويتجه غربا نحو باب السوق ، أما دار الباي

القديمة فهي مرتبطة بدار الباي الجديدة بواسطة زقاق الحظيرة ، الذي يقع شمال الزقاق . السابق . واذ نحن أخذنا الشارع ، الذي يؤدي من باب القنطرة الى القصبة ، فاننا نجد الى الجانب الايمن ، فيما بينه وبين الصخور المنحدرة ، شارع اليهود ، الذي يربطه بسوق السلاح زقاق ، وفيه يسكن صائغي الذهب والفضة من اليهود ، وهذا السوق ، وكذلك الشارع الممتد حتى باب القنطرة يحتوي على بيوت الاثرياء اليهود . وهناك أخيرا شارع يمتد من القصبة الى باب الرحبة ، ولا يسكنه سوى الخاصة .

وباب القصبة قديم ، وتسنده اربعة أعمدة ، ويوجد فوقه ضلع وعظم منزوع من ركبة انسان ، ولم أستطيع معرفة ما اذا كان عظما حقيقة أوأنه مصنوع من الحجارة ، لانهما كانا عاليين جدا ، أما الاهالي فكانوا يعتقدون أنهما من بقايا روماني قديم . والقصبة ميدان فسيح ، وهي أكبر من قصبة الجزائر بمقدار النصف ، وتحيط بها عدة بنايات عالية ، يسكنها المفتي . وهناك قوس يؤدي عبر هذه البيوت الى ميدان ثان ، يستطيع المرء منها أن يرى المدينة كلها ، وفيه أقمت بطاريتي ، وتوجد بها فتحة مربعة قطرها 6 أقدام ، يصل المرء منها إلى قبة جميلة محاطة بحجارة مربعة ، قطرها حوالي 80 قدما ، كان يلقي فيها ، ولعلها كانت بئرا في الاصل ، بمن يأمر الباي بخنقهم . أما الباب الذي يدخل المرء منه عبر الصخور ليصل الى المدينة فقد سبق ذكـره .

ويحتوي قصر الباي على أربعة أجنحة في مربع مائل ، وقد خصص الخارجيان منهما لاسطبلات الخيول ، ويحتويان على أكثرها نبلا ، ويكون الجناح الغربي البلاط والمدخل الوسط الى غرفة الباي ، التي تقام فيها المجالس القضائية ، ويستقبل فيها الاجانب . والغرف الارضية كلها مغطاة بالاجر الاحمر ، وجدرانها مدهونة أو مغلفة بأنواع حجرية محروقة ومطلية بمادة لامعة . أما الغرف العلوية فذات الواح ، وتغطي أرضيتها زرابي تركية ملونة وجدرانها منجـدة .

وتوجد في وسط القصر ثلاث حدائق مربعة مفصولة عن بعضها ، وتربط بينها طرق ، وقد أقيمت حولها آبار محاطة بجدران لريها ، ويحمل اليها الماء ، الذي يجلب بالبغال من خارج القصر ، بواسطة مجار مائية . وفي احداها حوض ، قطرها 10 أقدام ، وهو مصنوع من قطعة من المرمر ، جلب سنة 1835 م من تونس فوق عربة صغيرة . ويحتوي الحوض على فوارة صغيرة . ويحيط بالحدائق رصيف من المرمر ، يتراوح عرضه ما بين 8 و 12 قدما ، وله

أعمدة مرمرية جميلة ، وفيه أبواب تؤدي من جميع الجهات الى القصر ، ولكنها لا تفتح الا من طرف الباي نفسه .

وبجدران القصر المواجهة لهذه الحدائق رسوم وضعها القسطنطينيون ، لا تنم عن موهبة فنية ، ويقال ان هذه الرسوم تمثل مدن الجزائر ، وهران ، عنابة ، وقسنطينة ، والقصر محاط في الخارج بسور من الطين الخام ، ولذلك فالسور تافه جدا . وهناك جناح يمتد الى حد ما نحو سوق العسل ، مزود بنوافذ زجاجية ، وفيه تقع أحب غرفة الى الباي ، يجلس فيها ساعات طويلة ، يتأمل جياده المقابلة له أو المارة من الاهالي .

وعندما نتجه الى خارج المدينة نجد قبالة باب السوق ، تلا عاليا مساحته 300 خطوة عرضا ، و 900 خطوة طولا ، وهو كدية عاتي . وترتبط في الجنوب الغربي بسلسلة صغيرة من الجبال ، ثم تنحدر في اتجاه الجنوب والغرب وتوجد بينه وبين الابواب الثلاثة ساحة كبيرة ، تحيط بها مقبرة . وكان بكدية عاتي عدد من قبور المرابطين الذين ماتوا سنة 1836 م ، واستعملت حجارتها لبناء الحصون ، وعرف بيت مبني على الطريقة الشرقية ، وواقع تحت الكدية ، نفس المصير . ويقال أنه بيت باي سابق ، انجليزي الاصل ، لقي حتفه في تونس بطريقة شنيعة ، وقرب هذا البيت فتحة ، أخذت قسما كبيرا من الساحة .

وفي الزاوية القائمة التي يلتقي عندها الواديان ، توجد خربة رومانية ، تحتوي على ستة أعمدة ، كان الغرض منها اقامة جسر أكثر منه اقامة قناة ، فالضفة الواقعة في اتجاه المدينة أعلى بكثير من الضفة الاخرى . وبين هذه الخربة والوادي الكبير بئر تدعى سيدي ميمون .

ويقع في شرقي المدينة سيدي مبروك فوق هضبة كبيرة ، ويوجد في الشمال تل آخر ، يدعى سيدي عبد القادر . والاراضي الواقعة في الغرب والشمال متنوعة جدا وكثيرة الخصوبة ، وهناك سهل جميل يمتد من المدينة حتى جبال القبائل ، وبه كثير من القرى ، وهو مستغل بصورة جيدة ، وخاصة في المناطق الممتدة على ضفة الوادي الكبير . وتقع مدينة ميلة في المكان الذي يبلغ فيه الوادي الجبال ، وتبعد عن قسنطينة بحوالي ست ساعات تقريبا ، وهي مدينة صغيرة ، تحتوي على 200 مسكن ، تحتل سهلا خصيبا ، ولها حدائق جميلة ، ويزرع فيها العنب بكثرة ، كما ينتج بها أجمل أنواع الكيف ، وبها حمضيات كثيرة ، مثل الليمون والبرتقال ، والبطيخ الجيد ، والرمان الكبير الحجم .

وتوجد في بلاد القبائل طيور كثيرة ، تقيم أعشاشها فوق صخور قسنطينة بصورة خاصة ، ويوجد بها كثير من النسور المرعية ، التي تظهر هنا بكثرة ، وتوجد كذلك طيور أليفة . وتعتبر مدينة

قسنطينة بالاضافة الى العصافير والخطاطيف ، موطن طيور اللقلق . أن أعشاشها فيها لاتكاد تحصى في أغلب الاحيان ، ومن عادة اللقلق أن يقيم عشين فوق بيت واحد ، وتأتي هــذه الطيور في الربيع الى قسنطينة ونواحيها في أعداد تفوق الالف ، وتترك المدينة مع صغارها في الخريف ، لتنتقل الى مساكنها في الصحراء . وأهالي قسنطينة يجلون هذه الطيور ، ولا يجرؤن على قتل واحد منها . والباي نفسه من هواة صيد الطيور ، وكان من عادته أن يقف في نافذة قصره أو فوق القلعة ليترصد ببندقيته الطيور المفترسة الصغيرة منها والكبيرة ، ولكنه كان يحافظ على حيــاة طيــور اللقلــق .

الفصل الثاني عشر

القسنطينيون تحت حكم الطاغية احمد باي - القضاء - اصحاب الكرامات - الأعيان - طريقة الزواج - التجارة - العملة النقدية

كان سكان قسنطينة ، الذين بلغ عددهم أيام اقامتي بها ثلاثين ألفا ، خليطا من الترك والعرب والقبائل واليهود ، وكان من بينهم أناس أغنياء جدا ، ولكن الانسان لا يستطيع أن يرى ثروتهم أبدا ، فما من رجل الا ويعرف كيف يخفي أمواله خوفا من جشع الباي ، ويتظاهر بالفقر من خلال ثيابه الرديئة وصناعته الصغيرة . وكثيرا ما كان يحدث للناس ، الذين لم يكونوا يأخذون حذرهم ، أن يعتقلهم الباشحمبا في الليل ويضعهم في مكان شددت عليه الحراسة ثم يأتي الباي ليطلب منهم عدة مرات مبالغ ضخمة ، واعدا أياهم باطلاق سراحهم بعد تسديدها وما يكاد الرجل يصرح بأنه لا يملك شيئا ، حتى يحضر الباشحمبا ليلا برفقة أربعة من اليهود يقومون بخنقه بعد ان يؤدي صلاته ، اذ يربطون خيطا حول عنقه ، ويدخلون عصوين بين الاذن والكتف ، ويديرون احداهما يمنة والاخرى يسرة الى أن ينقطع نفسه ، ثم تلقى جثته في الليلة نفسها في القبة التي وصفتها آنفا . واذا سأل أحد الفصوليين عن سبب اختفاء الرجل المفاجيء ، كان الجواب : لقد أمر الباي باعتقاله بسبب الخيانة العظمى التي ارتكبها .

وبعدئذ ؛ ٠ ـ .بشحمبا الى بيت المخنوق ، ويكسر الخزانات والصناديق ، بل جدران الغرف أيضا للعثور على المال المخبوء . وبذلك يحرم ابناءه المساكين من اموال ابيهم ، فيمتهنون الشحاذة في المدينة ، دون أن يكون لهم حتى الحق في أن يعلنوا أن أباهم لم يمت ميتة طبيعية واذا استطاعت أسرة ما أن تنقذ جزءا من مالها ، ولوحظ عليها ذلك من طريقة معيشتها ، فانها ستطارد الى أن يقضي على آخر عضو من أعضائها .

وكان يعيش في قسنطينة تركي ثري ووزير من وزراء الباي ، قام بالمحاولة التالية حتى لا يخنق في يوم ما وحتى يتمكن من انقاذ نفسه وماله : لقد ذهب الى أحمد وطلب منه أن يسمح له بالسفر الى مكة ليوقف بعض أمواله على مسجد النبي . فنال الاذن بذلك فحمل كنوزه فوق بغاله ، وأمر ، لكي يتجنب لفت الانظار اليه ، بأن تخرج البغال من باب ، وأسرته من باب ثان وخرج هو نفسه من باب ثالث ، واجتمعوا ثانية على بعد مسافة من المدينة ، ولكن الباي لاحظ أن هذه السفرة الى مكة نهائية ، وأن هذه الثروة الكبيرة ضائعة منه لا محالة ؛ فأمر الجند ، فركبوا ليلا ، وباغتوا التركي في الطريق وعادوا به اليه ، ولما عرفت الحادثة ، عمل الباي على أن يبعد الفضيحة عنه ، فاعلن في المدينة أن المجرم لم يكن ينوي السفر الى مكة ، وانما كان ينوي الالتحاق بالفرنسيين . فخنق بكل بساطة وجردت عائلته من مالها ، وأقتسمه الباي والباشحمبا فيما بينهما .

وهناك مثل آخر عن جشع أحمد باي الفظ هو مايلي : في سنة 1833 أمر بضرب سكة جديدة ، وهي قطعة نحاسية في حجم القطعة الفضية ، وكانت لهما نفس القيمة ، فكان له من ورائها طبعا كسب كبير ، فقد اشترى المراجل القديمة كلها وضرب منها السكة وحرص كذلك على أن يستعيد القطعة الفضية في مقابل القطعة النحاسية .

وبعد أن استعملت هذه العملة الثانية بضعة شهور ، منع استعمالها ، واشترى الرطل من المواطنين باثنتي عشرة قطعة فضية . فالتفق التجار ، الذين كرموا بهذا النوع من العملة ، على مراجعة الباي في ذلك ، وعينوا مواطنا مسنا ليتحدث باسمهم ، فطلب هذا مقابلة الباي ، وقدم له شكواه فتركه الباي يتكلم ، ثم قال له : « من سمح لك بأن تصدر التعليمات لسيدك ؟ لقد أضعت حياتك ! » وأمر بقطع رأسه ، وبأن ينادي مناديه : لقد أعدم بسبب التعليمات التي قدمها لباشاه . وشاهد الاهالي ذلك دون أن يجرؤوا على النطق بكلمة واحدة . ولا نستطيع أن نفهم تطاول رجل واحد على عدد كبير من الناس ، يستطيع كل واحد منهم الانتصار على خصمه ، الا اذا عرفنا أن الباي يستميل اليه ، وذلك في الوقت الذي يعادي فيه الاغنياء والوجهاء ، الالاف من أبناء الطبقة الفقيرة ويتخذهم جواسيس له . وكان من المستحيل القيام بهجوم مفاجيء على الباي ، فقد كان هناك ، بالاضافة الى المماليك والحرس العسكري حرس سري يحيط بالقصر ، ولا يمكن الدخول اليه رغم ما به من أبواب كثيرة ، وكانت الابواب نفسها تحتوي على كوات لاطلاق النار،تتوسطها بنادق تشبه نوع رامبارت عندنا ، بعيدة المدى ، وتتسع لعشر أو اثني عشرة رصاصة ولم يكن الباي نفسه يخرج بدون سلاح ،

فكان يتسلح ، حتى حين ينتقل من جناح من أجنحة القصر الى آخر ، بسيف ومسدسين معبأين ، وكان وزراؤه كلهم يرتعدون أمامه ، ويحاول كل منهم أن يقف في الصباح ، قبل أن ينهض الطاغية ، أمام بابه ، وذلك خوفا من أن يشي به وزير آخر في غيابه .

كان أحد اتباع الباي يشغل منصب قائد في قرية مجاورة،ويعيش معه في وئام تام ، يدفع له الضرائب،ويقدم له خدمات صادقة ،كان يرسل فلاحيه ليحاربوا في صفوف جيشه ، ولكنه اشمأز في النهاية من الجرائم التي ارتكبها الباي ضد رعاياه ، وتبين له أن الخضوع للفرنسيين افضل من الخضوع لطاغية من هذا النوع . ولذلك أخذ يراسل سرا المقدم يوسف الذي كان قد خدم مملوكا في قسنطينة ، وذات يوم وجه مع أحد فلاحيه رسالة الى أحمد باي ، ورسالة أخرى مع الرجل نفسه الى المقدم يوسف ، يحملها اليه في الليل عبر الحدود خفية .

ولم يأخذ الفلاح حذره ، فقد وضع الرسالة في جراب من جلد الماعز ، وذهب أولا الى الباي ، وحين أمر بالدخول ، ترك الجراب تأدبا فوق مقعد بالممر ، يجلس عليه عادة الحرس السري . وفي أثناء ذلك جاء كلب من كلاب الباي ، وأخذ الجراب وراح يسحبه في ساحة القصر كلها ، فتمزق ، ووقعت منه الاوراق التي كانت به ، ومن بينها الرسالة الموجهة الى المقدم يوسف . فرفعت وسلمت الى المملوك الاول ، الذي سلمها بدوره الى الباي . وكم كانت دهشته شديدة عندما رأى عنوان ألد أعدائه ! .

وفتح الباي الرسالة ، وقرأها ، وامر بوضع الرسول في السجن ، ثم كتب رسالة لطيفة الى القائد ، طلب منه فيها أن يزوره مرة أخرى . وجاء القائد ، دون أن يخشى أي مكروه ، فاستقبله بلطف كعادته ، وجلسوا الى مائدة الطعام ، وفي أثناء الاكل أخرج الباي الرسالة فجأة وسأله : هل تعرف هذه الرسالة ؟ أصفر وجه القائد وعجز عن الكلام . وعندئذ اشتد غضب الباي ، فأمر أن يفتح فمه،وأخرج مسدسا وأطلق النار في فمه بالذات.وفقد بقية الضيوف طبعا شهيتهم ، ولكن نظرة واحدة من الطاغية جعلتهم يواصلون الاكل !

وكما يكن الرجل تكون قوانيه! من حق الرجل المسلم أن يتناول جميع المشروبات ولا يستثني منها الا الخمر ، ومع ذلك فقد كان شرب العرق وبيعه ممنوعا منعا باتا في أيام أحمد الباي ، واذا ضبط مسلم وهويتناوله ، فانه يتلقى خمسمائة ضربة بالعصا في رجليه . وقد أعدم يهودي،لانه كان يبيع العرق.وكنت قد حضرت بنفسي ثلاثة اعدامات من هذا النوع ،

ولحم الزعتني تلك القسوة .ــ كان آحد المسلمين جالسا ذات يوم يشرب العرق في بيت يهودي لدخل رجلان الى البيت فجأة ، وأخذا يصرخان ، لانهما وجداه سكران ، فاجتمع حشد كبير من الناس ، والقي القبض على المسلم واليهودي معا وحملا تحت الدفع والضرب وأوقفا أمام نافذة الباي . وسألهم ، ما شأنهم مع اليهودي ، فانطلقت ألف حنجرة تروي له ما حدث وعندئذ قال : «اضربوا المسلم بالفلقة ، واقطعوا رأس الكافر في الحال !» .

وكان اليوم يوم سبت ، فأسرع اليهود كلهم اليه ، وعرضوا عليه 20 ألف ريال من أجل تأجيل اعدام المحكوم عليه الى اليوم الثاني ، ولكن أحمد لم يتراجع في كلمته وحملت الشبيبة التي اعتبرت ذلك عيدا بالنسبة لها ، حملت المسكين الى ساحة الاعدام أمام المدينة . وهناك ربطت يداه ورجلاه ، وبعد أن طرح أرضا ، جمع الروث الجاف والاشواك ونباتات الحسك ، وكومت فوقه ، ثم أشعلت فيها النار . وبدأ الشقي يشوى شيئا فشيئا ، وبما أنه كان يتحرك من شدة الالم ، ولم يكن في وسعهم أن يمسكوه بسبب النار ، فقد جلبوا عصيا طويلة وأخذوا يدفعونه هنا وهناك ، ولم يمت الا بعد ساعة ، وكانت النار تزود بالاخشاب الى أن اختفى آخر أثر لجسده .

وكان اليهود بصورة عامة محتقرين في قسنطينة ، فكان اليهودي يعامل معاملة العبد ، فاذا احتاج الباي الى المال فانه يطلبه من اليهود ، وحين يكون لشخص ما عمل لا يليق به ، فانه يأخذ اليهودي ليقوم بذلك العمل . واذا وصلت مثلا الرؤوس المقطوعة الى المدينة وأصابها الفساد لبعد مسافة النقل ، وشدة حرارة الشمس ، فان اليهود يأخذون من بيوتهم ودكاكينهم ، ويعطي لكل واحد منهم رأسان ، يطوف بهما في المدينة ، ثم يحملها الى الرحبة ، وان امتنعوا عن ذلك فانهم يتعرضون لاهانات مختلفة .

ويعاقب على السرقة بقطع اليد ولو كان السارق مسلما ، وقد رأيت طفلا ، قطعت يده اليمنى ، لانه سرق مهمازا من دكان تاجر . ووصل قباتليان الى قسنطينة لشراء بعض البضائع فأحضرا معهما نقودا مزيفة ، فقطعت يداهما ، وطيف بهما في المدينة ، وحول عنقهما حبل ثم أطلق سراحهما . وليس السياف هو الذي يتولى قطع اليد ، وانما يتولى قطعها الحفاف ، الذى يلعب في الجزائر دور الطبيب ، وينهب الناس بخز عبلاته . وقد جرت العادة أن يجلس الاشقياء فوق مقعد، فيغلي الحفاف القار في طاس، ثم يمسك اليد اليمنى و يقطعها بموسى الحلاقة من المفصل ، ثم يغمس الذراع في القار الحار لايقاف الدماء

وهناك جرائم يعاقب عليها بالعصا ، ويتراوح العقاب بين مائتين وألف ضربة ، ويوضع المذنب عادة فوق الارض ، ويربط الى خشبة طولها ستة اقدام ، وتدخل القدمان في الحبلين ، وترفعان بصورة عمودية ، ثم يضرب باطن القدمين أو المؤخرة ، وقد رأيت العرب ، الذين تلقوا بهذه الطريقة خمسمائة ضربة ، يسيرون رغم ذلك مستقيمين . ولا يعفى الجنس اللطيف من هذا العقاب ، فاذا فوجئت زوجة وهي في طريق الغواية ، فان القناع ينزع عن وجهها ، ويطاف بها في المدينة عدة مرات ، وشعرها مرسل ، ثم يلقى بها من فوق الصخور على ارتفاع ستمائة قدم ، ومن حق أقاربها أن يجمعوا عظامها المكسورة ويدفنوها !

ان هذه الصرامة الشرعية تجعل القسنطيني يحترس ما أمكنه الاحتراس ويتجنب رفع قضيته الى القضاء . فاذا حدثت معركة كلامية أو وقع عراك وخصام ، فان أول القادمين يحاول الفصل في قضية المتنازعين واعادة الامور الى نصابها،ويخاطبهم عادة بقوله : هل أنتم يهود أو مسيحيون حتى يتعذر عليكم أن تتصالحوا فيما بينكم؟ويكون جوابهم في العادة : لعنة الله على الكفار . نحن مسلمون واخوة ! وبذلك ينتهي النزاع (وهذه فضيلة نتمنى أن تعمل بها أروبا المسيحية) ، أما اذا امتنع الطرفان عن تسوية النزاع ، فانهما يذهبان الى مولى البلاد ، فيستمع لهما خلال ساعة من الزمان ويصدر الحكم من غير أن يمسك بالقلم ، ويتمثل الحكم في أن يتلقى الاثنان أو أحدهما فقط عددا من الضربات ، وينفذ الحكم في الحال في غرفة القائد .

وحين تقع حادثة ، ينتج عنها موت أحد الطرفين ، فان المدعي و المدعى عليه يذهبان الى الباي ، وبعد مرور ربع ساعة ينادي الداعي بأن هذا أو ذاك قد حكم عليه بالاعدام ، الا أن المذنب في مثل هذه الحالة لا ينتظر عادة الى أن توجه اليه التهمة ، وانما يلتجيء الى جامع المفتي ، لان الباي لا يستطيع اخراجه منه ، رغم ما له من سلطان ، ويقدم له الطعام من طرف أهله أو من طرف المفتي . وبعد أيام يذهب المفتي الى الباي ، ويتوسل اليه أن يعفو عنه ، واذا رفض الباي ذلك ، فانه يساعده بجميع الوسائل حتى ينجو بنفسه من السجن ويفر من الجواسيس الذين يحيطون بالجامع . أما في أثناء الليل فيتمتع بالامن التام تقريبا ، فالعربي لا يحب ترك بيته في الليل ، وقبل أن يطلع النهار يكون قد وصل الى جامع آخر ، ويظل ينتقل هكذا من جامع الى آخر الى أن ينجو بنفسه في النهاية .

والواقع أن الدين هو القوة الروحية الوحيدة ، التي تتمثل في المرابط ، والتي تحد بالتالي من حب المسلم للسيطرة . ويوجد في الجزائر نوعان من المرابطين ، ويمثل النوع الاول أصحاب

المساجد ، اللذين تعلموا القرآن ، فصاروا يعرفون القراءة والكتابة ، ويعلمون الاطفال . أما النوع الثاني ليمثله رجال دراويش ، يظلون في الهواء الطلق ليلا ونهارا كيفما كانت الاحوال الجوية ، ويحيون على طريقتهم الخاصة حياة صالحة ، فهم لا يأخذون المال ولا الهدايا ، وتقدم لهـــم الدولة سنويا لباسهم ، الذي يتكون من برنس وقندورة واذا شعروا بالجوع فانهم يطرقون أول باب يجابههم ، دون أن يجرؤ أحد على ردهم ، وهم بالمناسبة اوسخ من رايت في حياتي ، اذ انهم لا يغتسلون ولا يحلقون وجوههم ولا يمشطون شعورهم ، وليس هناك ما هو أبعث على القرف من شعورهم الكثيفة الطويلة فوق رؤوسهم العارية أبدا .

ويعتقد الشعب هناك أن لهم صلة ما بالله وأنهم لذلك أصحاب كرامات ، ويستشيرهم الجنس اللطيف بصورة خاصة في كل ما يتعلق بالامراض الجنسية والحمل ، وفي كل مرة يعدونهن بأنهم سيطلبون ذلك من الله في المناسبة القادمة . وحين انتشر الوباء في قسنطينة سنة 1834 حاول أصحاب الكرامات أن يقنعوا الشعب بأن هذا الوباء ليس في الحقيقة سوى حشد من المسيحيين،الذين يحومون في الجو بصورة غير منظورة بقصد تسميم المدينة.ورغم مافي هذا الادعاء من غرابة ، فقد صدقه الشعب ، وخرج هؤلاء السذج في موكب كبير يطوفون بالمدينة وبايديهم عصي طويلة،راحوا يلوحون بها في اتجاه الكفار غير المرئيين،ويصيحون ويعوجون ويقومون بحركات كالمجانين ، وبعد أيام خف الوباء حقيقة ، فاصبح ايمان الناس بكراماتهم بلا حـــدود .

وكنت في سنة 1835 قد شاهدت منظرا غريبا : كان أحد هؤلاء المرابطين يجري ويصرخ ويبكي ويضرب كل من مر به بالحجارة،وكان من حوله يبكون معه،لانهم أعتبروا بكاءه علامة على الحرب الكبيرة القادمة . وهدأ بعد ساعات ، وأكل ثم قال : ان الكفار سيحاربون مدينتنا ، ولكن الله ورسوله سيحميانها منهم .

ولا يجرؤ غير هؤلاء الاولياء ، أصحاب الكرامات على ازعاج الباي أثناء فترة الظهيرة ، وكثيرا ما كنت أسمعهم في هذه الساعة يصرخون ويزمجرون في القصر ، ولم يجرؤ أي حارس على طردهم ، مع أن أدنى حركة كانت تسبب لصاحبها الموت ، فقد كان الباي يخشى أن يدعوا عليه ، فيصاب بالعمى ، وهم لا يسيرون الشارع بمفردهم أبدا ، وانما يطلبون ممن يمر بهم بعد أن يكونوا قد قضوا وقتا طويلا جالسين في أحد الامكنة ، أن يقدم لهم يده ، ويرافقهم لى مكان آخر،يريدون الجلوس فيه.وكثيرا ما يجد المرء النساء مشغولات حولهم ، لانهن يعتبرن نزع القمل الكثير عنهم بمثابة سعادة كبيرة ، ذلك أن لهؤلاء المرابطين أمزجة خاصة ،

ولا يمكن المرأ أن يعرف ما إذا كان هذا الذي ينزعه عنهم لا يتحول في أيديهم إلى حبات ذهبيــة !

ولهذا الجنون علاقة بالخرافة التالية ، التي أريد أن اختم بها وصف هؤلاء الاولياء الكسالى غالبا ما كنت أتحدث مع عدد كبير من أهالي قسنطينة عن نظافة الاروبيين الفائقة بالنسبة للافريقيين وأقول لهم ان المرء لا يكاد يعثر في أوربا حتى على الحشرات ، وخاصة القمل ، الذي يعاني منه كل افريقي ، ولكنهم ضحكوا من بلادتي ، وكانوا يذكرونني في كل مرة بقصــة الحمامتين : فقد أرسل الله في غابر الازمان حمامتين احداهمًا تحمل رملا ذهبيا ، والاخرى قملا ، وقال للتي تحمل الذهب : طيري أنت فوق الاراضي الاسلامية وبعثري الذهب ، وقال للتي تحمل القمل طيري فوق اراضي المسيحيين ونعثري القمل . وطارت الحمامتان معا واخطأتا في الطريق ، وهكذا تلقى المسيحيون ما للمسلمين فعاقبهما الله بالسواد ، فنشأت الغربان .

وللمسلمين مثلنا يوم مبارك في الاسبوع ، وهو يوم الجمعة ويسمونه نهار الجمعة ، ولكني لم أجد فرقا بينه وبين الايام الاخرى ، فالناس يذهبون كالعادة لاداء الصلاة ، ويمارسون أعمالهم. أما أعيادهم فلا أريد أن أتحدث هنا الا عن الاعياد الثلاثة المهمة وأكبرها هو العيد الصغير ، الذي يسبقه شهر الصيام . فبمجرد رؤية الهلال يعلن عن بداية الصيام بطلقة مدفع ، ويبدأ الامساك في الثالثة صباحا بعد صلاة الفجر ، فينقطعون عن الاكل والشرب ، ولا يضعون الماء في أفواههم عند الغسل ، ولا يدخنون ولا يستعملون السعوط ويتحرزون من شم الورد ، وكثيرا ما يرفض المريض تناول الدواء ، وإذا ارغمهم المرض على الافطار ، فانهم يصومون تلك الايام فيما بعد . وفي الساعة السادسة مساء يعلن عن الافطار بطلقة مدفع أيضا ، ويستطيع المرء أن يرى بعد الخامسة رجلا أمامه نارجيلة مشتعلة ، وآخر في يده علبة سعوط مفتوحة ، وثالثا يمسك بقطعة خبز ، ويرى بعضهم واقفين في الشارع ، ينتظرون طلقة المدفع والاذان . وبما أنهم يعانون كثيرا من الجوع أثناء النهار ، فانهم يأكلون كثيرا في الليل ، فتضطرهم التخمة الى الافطار في اليوم التالي لاسباب صحية . وكان علينا نحن الاسرى أن نصوم أيضا ، ولكننا كنا نحرم من مشاركتهم في الاكل . وقد حدث لي ذات يوم أني لم أستطع أثناء العمل منع نفسي من وضع قطعة خبز في فمي ، فضبطت أثناء ذلك ، وثارت ضجة كبيرة حولي ، الى درجة أني اعتبرت نفسي ميتا لا محالة ، الا أن الصائمين اعتبروا ذلك خطأ ناتجا عن جهلي ، فنجوت من القتل ولكنـي ضربــت ودفعــت .

وتعم الفرحة برؤية الهلال ثانية ، فيقبل الحضر والفلاحون ، أصدقاء وغرباء ، بعضهم بعضا في الرأس أو في الكتف اليمنى ويتبادلون التهاني . وينظم الباي ليلة العيد حفلة عشاء ، تعزف خلالها الموسيقى ، وفي يوم العيد يستطيع كل انسان أن يدخل القصر ليتمنى لسيده الباي عيدا سعيدا . وفي حوالي التاسعة صباحا يركب الباي جواده ويترك المدينة برفقة مماليكه وبصحبة أعيان المدينة والفلاحين ، ودقات الطبول تتعالى ، وتتبعه أجود خيوله وبغاله وفوق ظهورها السروج والاغطية المطرزة . ويحيط بموكبه عدد كبير من الاهالي ، شيوخا وشبابا ، راكبين وراجلين ، والخيول كلها مزينة بسجادات جميلة ، وتطلق سبع طلقات نارية تحية للباي عند دخوله المدينة وخروجه منها .

ويجلس الباي خارج المدينة فوق مخدة في رحبة ، ويبدأ سباق الخيل الذي تصاحبه انغام الموسيقى ، ويمر كل قائد مع فرقته أمام الباي ، ويطلقون النار كلهم ، وما من مرة الا ويتسبب ذلك في وقوع ضحايا ، لايقام لهم أي وزن ، وبعد ذلك يوزع الباي الهدايا على خدامه وحراسه ، ويقدم الجوائز لاحسن الفرسان . أما الاطفال فتقام لهم أراجيح وخيام ، يتناولون فيها عصير الليمون والبرتقال مجانا . وتستمر التسلية حتى الثانية عشرة يعود بعدها الباي الى المدينة ، ويتناول كل واحد طعامه في بيته ، ويصدر عادة العفو عن الاسرى الذين شفع فيهم .

وبعد هذا العيد ، الذي يدوم ثلاثة أيام ، يأتي العيد الكبير ، ويحتفل به بالطريقة نفسها الا أن على رب العائلة أن يذبح لكل فرد ذكر من أفراد عائلته خروفا ويؤكل اللحم مدة ثلاثة أيام بكاملها .

والمولد النبوي عيد كبير بالنسبة للاطفال ، فالمدارس كلها مزينة بالاعلام والازهار ، ويقف التلاميذ أمامها ، وبأيديهم مسدسات ، يسددونها نحو كل مار ، فيدفع لهم النقود هدية واذا كان المار يهوديا ، أو يهودية ، فعليه أن ينزع حذاءه ويغني . ويعترض الاطفال طريق المارة ويرشون وجوههم بالماء المعطر ، وينتظرون منهم أيضا أن يقدموا لهم هدية ، وتوجد بقسنطينة مدارس كثيرة ، ولذلك فمن المستحيل أن يمر المرء في هذا اليوم بشارع من الشوارع دون أن يتوقف .

ومن الأعياد الدينية انتقل الآن الى الزواج . فاذا أراد شاب أن يتزوج ، فانه لايستطيع أبدا أن يقيم علاقة شخصية مع فتاة ، لانه لايجد وسيلة لدخول بيت الاسرة ، وحين يسمع أن لهذا الرجل أو ذاك فتاة في سن الزواج ، يرسل يهودية الى بيتها فاذا كانت تريده ، فانه يتوجه الى ابيها ، ويتفق معه على المهر الذى يريد أن يقدمه للفتاة ، ويتراوح عادة بين 75 و

100 ريال ، ويقدم هذا المال للفتاة عن طريق أبيها . وفي يوم محدد يذهب الأب مع ابنته والعريس الى القاضي فيكتب هذا الأخير اسميهما ، ويتقاضى على ذلك ريالاً واحداً كرسوم ، فيتم العقد . وتشتري العروس بالثمن لباسها وتبتاع ما تحتاجه اليه من الاثاث والأدوات ، التي تحملها الى العريس يوم الزواج .

وفي المساء يأتي كل أقرباء العريس أمام بيت العروس وبأيديهم الفوانس ، وعندئذ تجلس وهي ترتدى رداء يلتمع بالذهب ، وهو ملك للمدينة ، يعار مقابل مبلغ من المال في خزانة مغطاة بإزار أحمر ، وتحمل فوق بغل الى بيت زوجها وتصاحبها الموسيقى ، وتنتهي الحفلة كلها بوليمة . وتصبح الزوجة منذ تلك اللحظة خاضعة لاوامر زوجها المباشرة المراة الملابس الصغيرة ، أما الملابس الكبيرة فيغسلها الرجل ، أو يقدمها لمن يغسلها ، وفي العيدين يسمح للنساء بالنزهة ، فيجتمعن خارج المدينة ، ويحضرن تسليات الرجال محتجبات فلا يرى الاجنبي من المرأة غير عينها . وحياة النساء وأعمالهن في المدينة تختلف عن حياة النساء في البادية ، وسأتحدث عنهن في مكان آخر .

وكانت قسنطينة ، فيما يقوله أهاليها ، مركزا تجاريا هاما في السابق ، وذلك لموقعها بين الجزائر وعنابة وتونس ، وكانت في السنتين الاوليين من أسرى لا تزال تستقبل كثيرا من الاخشاب والثمار والمنتجات الاخرى في أسواقها . وكان تليس القمح يباع في نفس الوقت بريالين ، وتباع البقرة السمينة بأربعة ريالات ، الا أن الوضع تغير منذ أن احتل الفرنسيون القسم الاكبر من منطقة عنابة ، ومنذ أن أصبح الفلاحون يبيعون بضائعهم لهم بأسعار أنسب ، وهكذا صار القمح يباع بـ 14 ريالا عوض ريالين وتباع البقرة بأربعين ريالا عوض 14 ريالا ، مما اضطر الباي الى أن يوزع على الفقراء القمح والخبز والاغنام أكثر من مرة . واستمر هذا الغلاء الى سنة 1837 م .

ويوجد بقسنطينة عدد كبير من أصحاب الحرف ، ولا سيما الحدادون . بالاضافة الى السمكارين والنحاسين ، والنجارين الماهرين ، وصانعي السيور ، والخياطين الماهرين الذين يظهرون مهارة كبيرة في التطريز بالذهب والفضة والحرير ، وكذلك صانعي السلال ، وعدد كبير من النساجين ، الا أن هؤلاء لا يصنعون سوى الاقمشة الصوفية كالسراويل والسترات الخاصة بالطبقات الفقيرة . ويحتكر اليهود الاعمال المتعلقة بالذهب والفضة . وهناك أيضا عدد غير قليل من الدباغين والخبازين .

دي مسميه اربع طاحونات، تديرها الخيل والبغال، وفي خارج المدينة توجد بالغرب منها رحوان مائيتان . والسكة التي أمر أحمد باي بضربها هي السلطاني ذو ال5 ريالات ونصف السلطاني ذو 2،5 ريال (عادة ريال واحد) .

ثم الريال وقيمته 8 ثمن صاع ، وثمن صاع بـ 6 ياره ، واليارة بـ 5 قطع نقدية خفيفة وعلى هذا فقيمتها حسب قطعنا ما يلي : ثمن صاع يساوي قرشين فضيين ونصفا ، والريال عشرين فضيا والسلطاني 3 تالير وعشرة قروش فضية ، ونصف السلطاني تالير واحد وعشريـــن قرشـــا فضيـــا .

الفصل الثالث عشر

معيشة العرب وتجهيزاتهم المنزلية

العربي بدوي متنقل ، فقطعانه ترغمه على تغيير مسكنه ، والبدو يعيشون مجتمعين فيما بين 50 و 100 خيمة يطلق عليها مجموعة إسم الدوار . وأكبرهم هو شيخ الدوار ، وهو الذي ينظم أمورهم التجارية ، ويخضعون لأوامره عن طيبة خاطر ، ويكون عددا من الدواوير بلادا يحكمها قائد .

واذا انتهي العربي من حرق نباتات الزوأن والحسد في الارض المحددة للزراعة في شهري سبتمبر واكتوبر ويناير وحرث الارض ، فانه يكل ذلك الى الله ، ويحمل خيامه وأدواته فوق البغال ويرحل بقطعانه ، التي تسوقها النساء . أما هو فيركب حصانه ، ويحرس الموكب ، والبندقية تعترض ظهره . حين يجد الماء والكلأ في مكان قريب ، يتوقف ويضرب خيامه . وكثيرا مايحدث أن تلتقي دواوير كثير في مجتمع واحد وهم لا يحتملون بعضهم بعضا ، على غرار ما كان بين ا براهيم ولوط ، بل تقوم بينهم معارك دموية .

وتوضع الخيام علامة على الملكية دون أن تضرب ، ويتولى حراستها النساء والصبيان وعندما تعطى الاشارة يثب المتخاصمون فوق خيولهم ، وينطلقون جماعات صغيرة ببنادق معبأة او يهاجمون خصومهم ، ويطلقون النار ثم يعودون ليعبئوا بنادقهم من جديد ، فاذا سقط من أحد الطرفين عدد من الرجال ، فانه يحمل خيامه وينسحب ببطء . ويطارده خصمه مسافة ثم يضرب خيامه في أرض المعركة بصفته منتصرا .

وينتقل الدوار بهذه الصورة من مرعى الى آخر الى أن يحصد الزرع ، الذي تركه في الخريف ، في نهاية ماي وبداية يونيه ، وعندئذ يحصده الرجال بالمناجل ويضرب عمود في الارض ، ويوضع حوله القمح اوسنابل الشعير ، ثم تدوسها خمسة اوستة بغال بأقدامها . وبعدئذ تصفى الحبوب بالمذراة . وتحفظ خارج الدوار في مطامير تشبه الاقباء . ويستعملون في الامكنة التي لا توجد بها طاحونات مائية مطحنة يدوية وهي عبارة عن حجرين مستديرين تصل بينهما خشبة مثلما هو الامر في الطاحونات الكبيرة ، الا أنها أصغر منها . ويدار الحجر الاعلى بواسطة مقبض خشبي . في حين يضل الحجر الاسفل ثابت في مكانه وهكذا تطحن الحبوب التي تلقى عن طريق فتحة في الحجر الاعلى . ويقوم العرب بهذا العمل يضع ساعات في اليوم ليعدوا ما يلزم يوميا من الدقيق ، اما غربلة الطحين فتترك للنساء .

وبعد جمع الغلال يضع العربي قسما من غلته في كيسين ، ويذهب ليبيعها في السوق . ويدفع من المال الذي أخذه ضريبة لحكومته . ويضم الباقي الى ما سبق له أن ادخره في قدر ويدفنه في مكان سري ، لا يطلع عليه حتى زوجته وأطفاله ، وهكذا يبقى له ماله إن اغار عليه عدوه وسلبه ادواته المنزلية وزوجته واطفاله .

وكثيرا ماتقع في الاسواق مشاجرات كبيرة بين سكان الدواوير المختلفة لاسباب تافهة . ليس من النادر أن تتحول الى حرب رسمية . وللحيلولة دون ذلك ياتي الى السوق عدد من القواد ومرابط . ليفصلوا في المنازعات التجارية بصورة حاسمة ، ويعاقبوا بالضرب أو بالموت أيضا . وتتكون تجارة العرب من الغلال والماشيةوالصوف ، ويأخدون بدلها من القبائل زيت الزيتون والتين والبندق والبارود .

ولا يترك العربي مكان الحصاد قبل الربيع القادم . وفي نوفمبر أو قبله بقليل ، يحفر قبل موسم المطر خندقا حول خيمته ، ويقيم أمامه حواجز طينية وحجرية ليحمي نفسه من الفيضانات . أما قطعانه فيترك أمر سوقها الى المرعى لنسائه وأطفاله ، وفيه تجد الكلأ في هذه الفترة أيضا . ولا يعرف عن قضية جمع التبن الا القليل أو هو لا يعرفه اطلاقا . وينام هو نفسه أغلب أوقات النهار . وعندما تظهر الشمس قليلا عند الظهيرة ، فانه يجلس خارج القرية مع الجماعة ويتحدث معهم عن تربية الماشية أو عن الفرنسيين وعن باي قسنطينة أيضا ، فهو يخشاه كثيرا .

أما أولائك العرب الخاضعون للباي ، فانهم يعيشون الى حد ما في سلام مع بعضهم بعض ، وأما الأحرار فهم في الغالب قطاع طرق ، يستغلون الشتاء ليقوم بعضهم بالهجوم على البعض الآخر في الطرق المنعزلة ، ويسلبونه وقد يقتلونه أيضا وهم ماهرون في السرقة بصورة

خاصة . فالعربي لا يدخل الى خيمته غير ماشيته ، أما خيله وبغاله فيربطها الى أعمدة بالحبال أو السلاسل في أرجلها ، ولذلك فان السراق يتسللون ليلا على أربع ، ويفكون القيود عن الحيوانات دون أن ينتبه اليهم السيد وكلابه ، ويمتطونها ويفرون بها . ولديهم كذلك مهارة في العثور على مطامير جيرانهم ! .

ويتم نظام العربي اليومي على الصورة التالية : يستيقظ عادة في الثالثة صباحا ، ويغرف الماء ، وهو جالس فوق الأرض ، بيده اليمنى – فاليسرى تعتبر غير طاهرة ويصبه في يده اليسرى ، ويغسل يديه أولا ، ثم يغرف مرة أخرى باليمنى ويمضمض فمه ثلاث مرات ، ويستنشق ثلاث مرات كذلك ، ويغسل وجهه ثلاثا ، ويبل يديه ثانية بنفس الطريقة ، ويدخل ابهاميه في أذنيه ، ويمرر راحة يديه من أول جبينه الى مؤخرة رأسه ثلاث مرات . وبعد ذلك يصب الماء باليمنى في اليسرى ، ويغسل ذراعه اليمنى من يده الى مرفقه ، وتقوم اليمنى بنفس العمل بالنسبة لليسرى ، ويمسح رأسه من مقدمه الى قفاه ويرد المسح الى مقدمه . ويمسح ظاهر اذنيه وباطنهما ، ثم يؤدي الصلاة واقفا ويداه متشابكتان فوق صدره ، ويركع ويسجد عدة مرات . وليس للبدو مساجد ، فهم يؤدون الصلاة جماعة في الهواء الطلق . ويجب أن يكون المكان الذي تؤدي فيه الصلاة طاهرا ، ولا يجوز أن ينجس . ويصلون أيضا مثل جميع المسلمين ، في اتجاه القبلة ، ولا يجوز للمتزوج أن يصلي الا بعد أن يغتسل في حين أن الأعزب يستطيع أن يتوضا او يتيمم ، عند انعدام الماء واقل تلطيخ بالدم أو النجاسة يجعل الصلاة غير ممكنة ، واذا اضطر لترك الصلاة بسبب المرض أوانعدام الماء فان عليه تعويضها .

وبعد الصلاة ينام حتى حوالى العاشرة فينهض ويتناول فطوره . ويتكون الفطور من كسرة تطبخ في الطاجين ، والأغنياء يعدونها من دقيق القمح وياكلونها مع الزبدة ، أما الفقراء فيطبخون كسرة الشعير وياكلونها بزيت الزيتون ، ويشربون معه اللبن ، ويأكلون التمر أو التين الجاف ، وبعد ذلك يقام بعمل صغير ، فيبرم مثلا حبلا من الحلفاء ، بعد أن يدقها بمطرقة خشبية ، وهذه الحبال قوية جدا ، مادامت جديدة وخضراء وهي تحل محل الحبال القنبية ، ويرى المرء خارج أبواب قسنطينة عدد من العميان وذوى العاهات خاصة يبرمون هذه الحبال وهم يصفرون ويغنون ، أو يصنعون شباكا كبيرة لجلب العلف أو أفرشة لتغطية أرضية الخيمة .

وفي الثانية عشرة يمضي ليتوضأ ويصلي ، ثم ينام حتى الثالثة ، ويصلي بعدها للمرة الثالثة ، ثم يركب البغل ويجلب العلف لقطيعه : ويسوق في الخامسة خيله وبغاله للشرب ويعلق لها فوق راسها خارج الخيمة عمارة فيها الشعير كما يفعل الفلاحون عندنا ويقدم له

العشبر بعد أ هلك وبعد أن تغلف الماشية يتناول السيد طعامه ، فيجلس فوق الحصيرة ، فتحمل له زوجته طعامه اليومي في قطعة خشبية ذات أرجل . ويتكون طعامه من الكسكسى المحبوب . وهو طعام ، تعده المرأة على الصورة التالية :

تذر الدقيق في قصعة خشبية ، عرضها قدمان ، وترش فوقه قليلا من الماء ثم تفتله بيديها وتضيف اليه الدقيق والماء عدة مرات . وهكذا تنشأ عن الفتل الطويل حبيبات تشبه الدخن . وبعد ذلك تملأ قدراعادية بالماء ، وتضعها فوق النار ، وبمجرد أن يغلي الماء تأخذ اناء آخر في اسفله ثقوب عديدة . وتضعه فوقه بحيث يلائمه تماما وتضع الكسكسي في الاناء الأعلى ، وتغطيه بغطاء أو بقطعة قماش ، وبعد نصف ساعة ينضج بواسطة البخار الذي يتخلله ، وترفع الاناء وتضع الطعام في اناء خشبي وتفرزه بيديها ، ثم تضع فيه العسل او الزبدة ، أو اللبن الخاثر أو الزيت ومزق اللحم . وقد أعجب الفرنسيون الذواقون أنفسهم بهذا الطعام .

ويهيء العرب طعاما آخر لذيذ يصنع من نبات القرنينة ، ولهذا النبات ، ساق يبلغ ارتفاعه قدما ونصفا ، وزهرة كثيفة وشوك طويل . وتقدم غذاء للجمال خاصة ولأزهاره نوبات لحمية تقطع وتطبخ وتهيأ بالزبدة ولا يعرف ساكن هذه المنطقة نوعا من الخضر غير البصل ، الا أنه يعرف كيف يجعل أطعمته العادية لذيذة المذاق عن طريق طبخ أعشاب مختلفة .

وبعد العشاء يذهب العربي البدوى في السادسة لأداء الصلاة من جديد ، وعقب ذلك تجتمع العائلة ، وتشغل النار وتنقي القمل الذي تعاني منه بسبب ملابسها الصوفية ، فتمسك بالثياب فوق النار قطعة قطعة وتنفضها بالعصى ، ثم تنام والعربي الريفي أكثر حرية في اختيار زوجته من الحضرى فهم يتزاورون في خيامهم ، ويتعرفون على نسائهم وبناتهم ، فاذا عجب رجل بفتاة ، فانه يحاول أن يعقد صفقة مع أبيها ، فان اتفق معه اشترى للعروس لباسا ، يتكون من قميص فضي أبيض ، ولباسا عاديا بكمين طويلين (قندورة) وحائكا يتراوح طوله بين 6 و 7 أذرع ، وتتخلله عادة خطوط بيضاء أو حمراء يلقى فوق اليدين والكتفين ، ويلف حول الجسد ويمسك بأبر فضية . واذا لم تحضر هذه الثياب ، فان العروس تترك دار أبيها عادية تماما . وبعد ايام من حمل الكسوة اليها يقود العريس بغلا ، فوقه مقعد يحيط به حائك أحمر ، أمام خيمتها ويجلسها فوقه ويغطي رأسها ووجهها بازار أبيض يلاقيهم أهل العريس ، برفقة أهلها ـ احبابها الى دوار العريس أو خيمته . وفي وسط الطريق يلاقيهم أهل العريس ، وينضمون الى الموكب وهم يطلقون نيران مسدساتهم وبنادقهم مبتهجين .

ويجلس الناس في خيمة واسعة يأكلون ويشربون والنساء جالسات بمفردهن ، ولكنهن يرين الرجال ويراهن الرجال ، وفي المساء يذهب الكل خارج الخيمة ويشعلون النار في أماكن مختلفه ، ويقضون نصف الليل في الرقص ، ولا يرقص الا النساء ، أما الرجال فيتفرجون ويطلقون النار بدون رصاص نحو أرجل الراقصات ، فيرفعن أصواتهن في زغردة ، وتتكون الرقصات من حركات متنوعة ، يقمن بها في كل الاتجاهات ، ويحركن مناديل حريرية ، وفي كل يد منديل ، حركات مختلفة خاصة في اتجاه العينين والفم ، للتعبير عن الفرح والحزن وتنتهي حفلة الزواج بعد منتصف الليل . ويقود العريس عروسه الى الخيمة ويسلمها لامه أو لنسائه الاخريات ليعلمنها التدابير المنزلية .

وتقوم هناك بأعمال كثيرة وهذا في الوقت الذي ينعم فيه الرجل بالراحة ، ولذلك لا تستطيع امرأة واحدة القيام بها . ففي الفجر تحلب الأبقار والاغنام ، ثم تأخذ واحدة في مخض الحليب ، بينما تنظم أخرى الخيمة ، والباقيات يسقن الماشية الى الرعيان ، وتتم تهيئة الزبدة على الصورة التالية : تعلق بعمود خشبي ذي عقب وثلاث سيقان ، في علو الانسان تقريبا ، قربة ، تحتوي على اللبن الجديد ، بواسطة حبال من أرجلها الأربع ، وتجلس المرأة أمام العمود ، وتمسك عنق القربة ، وتحركها هنا وهناك بدون انقطاع ، وهكذا تنشأ الزبدة بعد مدة قصيرة والقربة ليست نظيفة تماما ، وكذلك اللبن لأن شعر الماعز يوسخها ولكن العربي لايقرف ، فهو قليل النظافة ، ويأكل الزبدة أويبيعها .

وبعد ذلك تجلس امرأتان خلف المنسج ، لتنسجا ألبسة للرجل ولانفسهما وللاطفال ، وينتصب المنسج بصورة مستقيمة . ويربط به جزء من الخيوط ، وتمرر البقية بواسطة الأصابع ، وتثبت بواسطة خشب ، وفي الوقت نفسه تجلس امرأة ثالثة خارج الخيمة ، وتشد خيوط صوفية بين أربعة أعمدة ، وتنسج القماش الذي تصنع منه الخيمة وهناك أخريات يهيئن الفطور للرجل والأسرة كلها . وبعد ذلك تهتم اثنتان بتهيئة الكسكسى وتأخذ الأخريات المطحنة ، ويطحن الدقيق اللازم . وفي حوالى الرابعة مساء تذهب اثنتان لجلب الحطب ، الذي قلما تعثران عليه ، ولذلك [illegible] يهن أن يكتفين بالبعر ، فيضعنه في الشمس ليصبح صالحا للاستعمال .

وتهتم امرأة بتقييد الماشية وربطها وحلبها ، بينما تغزل أخرى الصوف مستعملة مغزلا ذا قرص خشبي يدار بواسطته . وتمسك تحت ذراعها عصا ، لفت حولها الصوف ، وتسحب منها خيطا ، وتضعه حول المغزل ، وتديره فوق فخذها ، ثم تبعده عنها الى تحت وتدعه يدور ،

وأثناء سحبها للخيط من الصوف ببطء ، ينشأ خيط سميك ، وبعد العشاء تعود النسوة الى عملهن السابق ، ينسجن ويغزلن حتى ساعة متأخرة من الليل .

ان النساء العربيات لايعرفن التسلية أوالاجتماعات العامة ، باستثناء حفلات الزواج ومآتم أقاربهن ، حيث يجتمعن حول قبر ، ويطلين وجوههن بالبعر ، ويندبن ويعبرن عن حزنهن عن طريق الصراخ والعويل . وهن لا يبحثن أيضا عن التسلية فماشيتهن وأعمالهن المنزلية هي كل شيء بالنسبة لهن . وهن يعشن ظاهريا في وئام مع بعضهن بعض ، واذا حدث بينهن نزاع فان الرجل يعرف كيف يفضه بسرعة . فنساء الرجل الواحد يغرن جدا من بعضهن غير أنهن يكتمن غضبهن ، ويحاولن بوسائل سرية أن يسعدن الحظوة المفقودة ، فيتوجهن الى طالب ، يشكون اليه همومهن ، فيكتب لهن حرزا ، يحرقنه ويسقين رماده الزوج الخائن ، أويعلقنه عندهن أوعند الزوج ويكلفهن هذا الحرز قليلا من المال ، ويروى النساء أنه قد أفادهن في علة حالات ..

الفصل الرابع عشر

معيشة القبائل واشغالهم

يختلف القبائلي ، الذي يسكن جبال الاطلس ، في بناء وجهه وزيه ونظام حياته وأعماله عن العربي والصحراوي والتركي اختلافا كبيرا ، فهو نحيف الوجه ، به سمرة تضرب الى الصفرة ، ولباسه قندورة صوفية ، وبرنس أبيض متسخ ، وحذاؤه خف من الجلد الخام . ويلف ساقيه حتى الركبة بخرق ، ويربط بها خفه . ويضع فوق رأسه قلنسوة حمراء متسخه ، وتحتها قلنسوة بيضاء تظهر منها عدة بوصات . أما العربي فهو أبيض الوجه وثيابه أنظف من ثياب القبائلي لانه لايعمل بنفسه إلا قليلا ويرتدي في الصيف قميصا قطنيا وفوقه قندورة من الصوف ايضا تحيط بحواشيها شريط أحمر ويلف حولها حائك تتخلله خيوط قطنية ويرتدي فوقه برنسا أو برنسين ، الاسفل منها أبيض خفيف ، والاعلى خشن أبيض اللون أو رماديه . وحذاؤه من جلد الغنم الاسود او الاحمر ويرتدي أيضا قلنسوة حمراء . وليجعلها صلبة يضع تحتها عددا من القلنسوات البيض . ويدير حولها خيطا أبيض أو بنيا أو أسود من شعر الجمل حجمه نصف بوصة .والصحراوي أسود اللون أو أصفره . ولباسه يماثل لباس العربي ، غير أنه لا يحمل خيطا ، يحمل حول رأسه عصابة بنية أو سوداء عرضها بوصة ، وعرض الحذاء العادى يرتدي جزمة صفراء أو حمراء .

أما التركي فلونه هو نفس لوننا ، وللمحافظة على تقاليده القومية يضع فوق رأسه قلنسوة حمراء ويحيط بها عمامة من أي لون كان ، وسروالاً قصيرا له صدرية ضيقة الكمين ، ويرتدى فوقها سترتين ، وفي قدميه حذاء أسود أو أبيض . ويسكن في الغالب بالمدن ، ويجد المرء هنـا

وهناك تركيا يشتغل بالفلاحة ويشتغل الأغنياء بالتجارة ، أما الفقراء فعليهم أن يؤدوا الخدمة العسكرية،والكراغلة ، الذين تربطهم بالأتراك قرابة الدم ، يشبهونهم في اللون والتربية والزي ، وكانوا أخلص أتباع أحمد الباي وحماته .

ويسكن القبائلي القرى والمدن الصغيرة النقية الهواء ، التي لاتقع في السهول وانما تقع فوق قمم الجبال ، وهي مبنية من الحجارة على الطريقة الأوربية وتحيط بها الحدائق التي تلتمع فيها الغلال البديعة . ولذلك يحن القبائلي الى مسقط رأسه مثل السويسري. وتتمثل أعظم ثرواته في غابات الزيتون ، التي تمتلىء بها الهضاب . وبمجرد أن يسود الزيتون ، ينفض من الاشجار ، ويلتقط من طرف سكان القرى المختلفة . وتوجد أمام كل قرية « دشرة » فوق ميدان واسع معصرتان أو ثلاث معاصر ، ويعمل فيها كل العزاب من الذكور والاناث ، وهي تمثل أعيادا بالنسبة لهم ، تختم بالرقص والموسيقى في بهجة كبيرة.

والزيت الجديد خاثر جدا لونه أخضر غامق وله طعم لذيذ ، ويوضع ، مصفى كان أو غير مصفى ، في جلود الماعز ، وينقل فوق البغال الى أبعد القرى ويباع فيها . ويدعى هناك زيت القبائل ويستعمل في جميع الأطعمة ، ويجب التفريق بينه وبين نوع آخر يدعى سيسنى ، يستخرج من زيت مر ، وهو فاتح اللون وذو طعم كريه ، ولا يستعمل الا بمثابة الوقود . وفي الصيف يجمع القبائل من الزيتون العذب كمية كبيرة من الزيتون الأخضر ، ويشق طولا وعرضا بسكين ، ويوضع لفترة وجيزة في ماء ساخن مالح ثم يؤكل ، وطعمه مر ، ولكنه مقبول .

ويشتغل القبائلي كثيرا بتربية النحل ، ويستعمل لذلك سلالا طويلة من الخيزران أو بيوتا صغيرة من الطين . ويضع السلال خلف بيته ، فيدخلها النحل بنفسه . ويبلغ ارتفاع البيوت الطينية ثلاثة أقدام وعرضها قدمين ، وهي مزودة بجدران في داخلها ومقسمة الى غرف ، ويبنيها خارج القرية حيث تكثر الزهور ، واذا شاهد القبائلي تجمع قدر كاف من النحل ، فانه يكسر البيت ، ويأخذ العسل والشمع ويبيعهما في المدينة ، وطعم العسل جد لذيذ ويوجد بكثرة .

ويمتاز القبائل بصناعة البنادق الجيلة ، ويبلغ طولها 6 أو 7 أقدام ، ولها ماسورة مثمنة لا مربعة . ومقبضها يمتد الى وسط الماسورة ، وقاعدتها ذات زوايا ، وهي مزينة عادة بحجارة أو جواهر صغيرة ذات الوان متعددة وأسفلها مغطي بنحاس أو بخشب جميل ، والماسورة موصولة بالمقبض بواسطة ثمان أو عشر حلقات فضية . أما القفل فيشبه ما هو عندنا ، الا أن القدر طويلة ، وعرض غطائها بوصتان أو ثلاث بوصات ، ومبرودة طولا ، لتطلق النار بصورة أجود ، والزناد في نفس الحجم ، ويحتوي على حجر ، بينه وبين المربع بوصتان أو ثلاث بوصات ،

ومع ان هذه البنادق ثقيلة جدا ، فانهم لا يرغبون في تبديلها بالبنادق الاوربية لانهم لايثقون في بقائها مدة طويلة نظرا لصناعتها الدقيقة . ويصنعون البارود بانفسهم أيضا ، وهو سميك وليس له حبيبات متساوية ، لانهم يجهلون طريقة تنقية ملح البارود من أجزائه الترابية ، ولذلك فهو قليل القوة .

ويبذلون قصارى جهدهم في استخراج المعادن التي تزخر بها جبالهم ، وقد أراني أحد وجهائهم عددا من السبائك الفضية ، طولها ما بين 15 و 16 بوصة ، كان قد أمر بنفسه باستخراجها وصهرها . ويوجد عدد كبير من مزيفي النقود ، يقلدون خاصة العملة الا سبانية والفرنسية بصورة خادعة ويدسونها قطعة نقدية بين العرب وسكان الصحراء .

ويعتبر الصيد أكبر تسلية بالنسبة للقبائلي ، ولا سيما صيد الخنازر البرية والنمور ، ويبيع الخنازير للفرنسيين أما النمور فيهمه أن يبعدها عنه ويظل في النهار يطوف في الجبل ويحمل معه كذلك سكينا ، فاذا اوجد مرقد النمر الذي يعرفه جيدا ، فانه يثبت بندقيته ليلا في الدغل ، ويعلق أمام فوهتها قطعة لحم ، ويمرر خيط عبر حلقة توجد خلف الفوهة متصلة باللحم . ويوصله بعقب الزناد المفتوح ويعود بعد ذلك الى بيته بهدوء ، منتظر اما سيحدث . فاذا رجع النمر من نهبه ، شم في الحين رائحة اللحم ، وأسرع اليه في نهم ، ومسكه بفمه بقوة ، وسحب اللحم مع الزناد في آن واحد ، فيتلقى طلقة عبر راسه ويسقط أرضا جثة هامدة ويعود القبائلى في النهار ، فيسلخه ويبيعه للفرنسيين او في قسنطينة .

ويتعلم القبائلي أطلاق النار منذ صغره ، وقلما ينجو منه الحيوان الذي يطارده ، ولذلك ، فان البدوى لايحب أن يعاديه . ويرتدى ثيابا خفيفه جدا عندما يمضى للحرب فبالاضافة إلى الحائك ، الذي يثبته فوق رأسه ويلفه حول جسمه ، يرتدى فقط القلنسوة الصفرة الحمراء ، اويذهب عارى الرأس تماما ، ويترك ضفيرة طويلة متشابكة تبتدئ من عنقه . ويحمل بندقيته فوق كتفه ، ويدخل سكينه ومسدساته في حزامه ، الذي تثبت فيه في الوقت نفسه جعبة الخراطيش . ويهاجم العدو بشجاعة ، يرافقه نساؤه اللواتي يضربن الطبل ويصرخن بصورة فظيعة . وهو لايحارب أبدا في مجموعة ، وانما يندفع بمفرده كقناص الى الأمام ، ويعرف كيف ينتفع بسرعته ومهارته في الدوران .

واذا حتم عليه أن يفر ، فانه يطلق النار قبل ذلك ، ويحشو بندقيته أثناء الركض ، ويستدير وينبطح فوق ظهره طولا ، ويضع وهو في هذا الوضع ، رجله اليسرى فوق اليمنى ، ويضع ماسورة البندقية بين ابهام قدمه والاصابع الاخرى ، ويراقب عدوه الى أن يصبح في مدى الرمية .

وعندئد يضغط الزناد ، وقلما يخطيء عدوه ، وينهض بسرعة ، ويركض مسافة بعيدة . وكثيرا ما شاهدت عشرين او ثلاثين شخصا يطلقون النار على قبائلي ، دون أن يتمكنوا من قتله . ولايحب القبائل أن تكون لهم مشكلة مع العربان في السهل ، وإنما يستدرجونهم الى الجبل ، حيث تكون لهم السيادة . ولذلك يبنون قراهم فوق قمم الجبال ، ليحموا أنفسهم من الغارات ، واذا اقترب عدو من مساكنهم ، فإنهم ينادون بعضهم بعضا من جبل الى آخر . وبعد فترة قصيرة يتدجج الجميع بسلاحهم .

وتحيط الاسوار بالقرى كلها ، وهي محصنة جدا ، لايستطيع العدو مهاجمتها بدون مدفعية . وقد برهنوا على شجاعتهم ومهارتهم في حربهم مع الفرنسيين . فتراهم يتسللون ليلا على أربع الى التحصينات الفرنسية . ويحاولون اغتيال الفرنسيين . ولكن الذي أعلمه أنهم لم ينجحوا حتى الآن في محاولات الاغتيال هذه . ويتسللون كذلك بين التحصينات ويغتالون المعمرين الفرنسيين الذين يسكنون خلفها . وينقسمون عادة الى قسمين ، قسم راجل ، وقسم راكب ويعسكر الفرسان خارج الخطوط الفرنسية ، لحماية الراجلين اذا طاردهم الفرنسيون عند انسحابهم ببطء رغم انصباب نيران المدافع عليهم من جميع البنايات ، ويدافعون عن أنفسهم حتى يصلوا الى جبالهم ، فيجدون الامن لان الفرنسي لا يطاردهم هناك .

وتحدث بينهم أيضا اشتباكات صغيرة لا تستعمل فيها الاسلحة ، فيجتمعون في عدد كبير ويتقابلون ويترامون بالحجارة ، ويستمر ذلك الى أن يقتل أو يجرح عدد كبير من أحد الطرفين . ويبدأ تلك الاشتباكات عادة سكان القرى المجاورة لاسباب تافهة وفي أثناء ذلك يتولى النساء حمل الحجارة الى ازواجهن وتشجيعهن .

وتوجد عند القبائل طبقة فقيرة جدا ، لانها لا تجد رغبة في العمل ، ومن ثم يذهب أفرادها بالمائات الى جيش الباي ، فيقبلهم كلهم شبانا كانوا أوشيوخا ، سليمين اومشوهين ، واذا هم حملوا معهم لباسا ، فذلك حسن بالنسبة لهم ، لان الباي لايقدم لهم البتة . وإنما يعطيهم بندقية قديمة ، يخصم ثمنها شيئا فشيئا من راتبهم الشهري وهو أربعة ريالات . وقوات الباي سيئة جدا ، وبصورة مطلقة ، من الناحية العسكرية ، فليس لها زي رسمي ، بل يرتدي كل جندي مالديه ، فيحمل هذا لباسا جميلا وراقيا ، ويحمل ذلك لباسا ممزقا متسخا ، ويمضي واحد ببندقيته ومسدساته ويغطانه الى المعركة ، بينما يمضي اليها اخر ، وربما يكون قد باع بندقيته ، وليس معه سوى هراوة ، والجيش لا يتلقى البارود الا قبل الهجوم

بفترة قصيرة . ونظرا لغلائه في قسنطينة فان الرجل لا يستطيع أن يأخد أكثر من عشر خراطيش وحين تنفد يجب عليه أن يحارب بالسيف .

وقلما يبقى القبائل مدة طويلة في خدمة الباي . فبعد أن يشارك في بضع معارك ويقطع عددا كبيرا من الرؤوس ، يتقاضى عليهما مبلغا محترما ، يتسلح كما ينبغي ، ويترك ، مع عدد كبير من جماعته يتراوح بين العشرين والثلاثين ، خدمة الباي ، ويلتحق بالفرنسيين الذين ، يرحبون بهم كل الترحيب ، وهناك تقدم لهم ملابس على الطريقة التركية فيكونون فرقة خاصة ذات زي جميل . وأغلبهم يفرون من هنا أيضا بما لديهم وينهبون ما يستطيعون نهبه ، ويعودون فوق ذلك الى الباي باسماء مزيفه . ونظرا إلى أن جيش الباي لا يعرف الضباط ولا ذوي الرتب العسكرية ، فانه من السهل عليهم أن ينتسبوا إلى الجيش مرة أخرى مجهولي الاسم ، أو أنهم يروون كيف اعتقلهم الفرنسيين وأرغموهم على الخدمة ويحدثونهم عن التجارب التي عاشوها بين الكفار ويحملون معهم أيضا أسلحة فرنسية يبيعونها بثمن مناسب ، ويكذبون على الباي بمختلف الطرق الممكنة .

وهكذا حمل عدد من القبائل ستة أحصنة مروضة على السباق ورووا للباي كيف سرقوهم من الفرنسيين في المرعى ، وكانت في الواقع أحصنة منبوذة ، اشتروها بثمن بخس وابتاعها الباي منهم لندرتها بثلاثمائة ريال . وروى له قبائلي آخر بأن الفرنسيين يقتلون الأسرى المسلحين وقد رآى بعينه كيف توضع ثعابين صغيرة فوق صدور المسلمين وبطونهم ، فتمتص دماءهم الى أن يموتوا . ولما لم يصدق الباي ذلك ، دعاني وسألني بحضور ذلك الكذاب ان كان ما يرويه صحيحا . وأدركت كذبته في الحين ، وقلت له ان هذه الثعابين الصغيرة ليست سوى علق ، وصفه الأطباء للقبائل المرضى بالمعدة ليمتص منهم الدم الفائض وغير النافع ، فاقتنع الباي بذلك ، وأمر باعتقال القبائلي ، واتهمه بالجوسسة وقتله بعد أيام .

وحين يصل القبائل الى جمع المال من جديد ، يفرون من الجيش للمرة الثالثة ثم لا يعودون مرة أخرى . وتذهب كل محاولات الباي في القبض على الفارين عبثا . فالجبال ليست تابعة للبايلك ، ولا يجمع المرابطون فيها سوى ضرائب قليلة . ويخشى الباي الاصطدام بالقبائل ، ولايحارب العرب إلا اذا تأكد من حيادهم .

وعلى الرغم من أن القبائلي ليس نظيف الثياب ، ولا هو من هواة الثياب الفاخرة ، فان الاولاد ، وأولاد أولادهم يحتفظون بالثوب الذي حمله أبوهم ما يناهز مائة سنة ، ويرقعونه رقعة الى ان يتساقط عن الجسم ، ولايطرح حتى في هذه الحالة لعدم صلاحيته بل يباع في

سوق من الأسواق ، حيث لايعدم أن توجد مرابط يبدى رغبته في شرائه ، ومع ذلك فإنه يحب النظافة في بيته ويحب أن يتزين نساؤه . والبيوت مؤثثة بصورة مريحة ولها حوش مخصص للماشية ونظرا الى أنهم لايربون الماشية الا قليلا ، فان نساءه يحرصن دائما على نظافتهن وهن يرتدين نفس اللباس الذي يرتديه نساء العرب ، الا أنهن يرتدين ، زيادة على الحائك ، قميصا وقندورة صوفية وفي أيديهن وأرجلهن أساور وخلاخيل كبيرة في عرض اليد أحيانا .

ويزين رؤوسهن بضفيرتين ، مصنوعتين من خيوط صوفية زرقاء ، تتدليان من الجانبين ، ويشبتن بهما حلقتين فضيتين مرصعتين بالجواهر ومعلقتين فوق الأذنين ويمتزن عن الاعرابيات بجمال الوجه . ومع ذلك فانهن لايحتجبن ، وإنما يمشين بوجه عار في البيت وخارجه . والقبائل يتزاورون في بيوتهم بدون أية كلفة ولا يظهرون الغيرة عندما ينظر رجل آخر الى زوجاتهم أويخاطبهن ، ويهتمون كثيرا بتربية الأطفال أكثر من أهتمام غيرهم ولديهم مدارس يعلم فيها المرابطون الدين والقراءة والكتابة . ويعلمون أولادهم الصناعات اليدوية ، وكثيرا ما يرسلونهم إلى قسنطينة أوتونس .

الفصل الخامس عشر

طريقة معيشة عرب الصحراء واعمالهم

عرب الصحراء هم سكان المنطقة الحارة ، التي تبتدئ بسلسلة جبال الاطلس الجنوبية وتضيع في صحراء رملية لا حدود لها . وليس لارضها سوى آبار قليلة ، بحيث ان المرء يسير ما بين ست وسبع ساعات دون ان يجد ما يطفئ به عطشه . ويحتوي قسم منها على نباتات قصيرة ، بينما يحتوي القسم الآخر على اعشاب طويلة حادة جدا وصلبة ، لا تاكلها الحيوانات . وليس هنالك غير اماكن قليلة ، توجد بها الآبار ، تحتوي على كلأ جيد ، ويسكن حولها الناس وتمتلئ السهول الممتدة على ابواب الصحراء باطلال مدن قديمة وبنايات مفردة بينها حجارة تحتوي على نقوش رومانية . (49)

ويعثر المرء في الجهة الاخرى من الجبال على بضع مدن صغيرة لاتزال مأهولة مثل تبسة وبسكرة . وتسيطر رياح السموم على هذه المنطقة ، ويتعرف المرء على وصول هذه الرياح الرملية الحارة بواسطة شدة الحر الخانقة ، التي تسبقها ، ويشاهد عن بعد على شكل سحابة من الغبار ، ترتفع وتتدحرج في السهل . وعندئذ يرتمي الناس وكذلك الماشية ، على وجوههم فوق الارض ويبقون في هذا الوضع ما بين 15 و 20 دقيقة إلى ان يمر ، ويعثر المرء هنا ايضا على النعامة ، وقد حمل عرب الصحراء عدة مرات نعامات يافعة ارتفاعها اربعة او خمسة اقـــدام هدية إلى احمد باي .

وفي الصحراء قسم كبير ليس له حاكم ، وقسم آخر يترأسه شيوخ ، يختارون من طرف رعاياهم . وقد عين الباي صهرا له شيخا للعرب ، وفر معه ايضا فيما بعد .

وسكان الصحراء يسكن بعضهم الخيام ، ويبني بعضهم الآخر بيوتا من الطين والحجارة وتتمثل ثروتهم في قطعان الجمال والاغنام وغابات النخيل . ويتاجرون بجارة كبيرة بالتمر والصوف . وتقود القوافل ما بين جملين وثلاثمائة جمل إلى تونس وقسنطينة . اما الغلال فانهم لا يزرعون منها إلا ما يسد حاجتهم الذاتية . وتقوم الجمال لديهم مقام البقر المعدوم عندهم . فيشربون حليبها . ويأكلون لحومها ويستعملونها لحمل الاثقال . وحليب النوق دسم وذو طعم حارق جدا بسبب نبات الحسد الذي تاكله الجمال . واللحم عديم الدهن . احمر فاتح . ولابد ان يطبخ مدة طويلة قبل ان يصبح صالحا للاكل . ومذاقه يشبه مذاق لحم الحصان إلى حد كبير . وتوضع التمور . بمجرد ان تنضج وتجمع . في الشمس لتجفف وتزول عنها رخاوتها ودهانها ، او يدك ايضا في جلود الماعز وتوضع فوقها حجارة ثقيلة ، ثم تباع . وتوجد في هذه المنطقة اشجار البلوط ايضا . ولثمارها شكل الثمار الموجودة عندنا . إلا ان طعمها ألذ . وحين تؤكل خضراء فان مذاقها لا يخلو من مرارة اما حين تحمص فوق النار في اواني طينية ، فانها تصبح ذات مذاق يشبه الجوز .

ويزرع سكان الصحراء نباتا ، يدخنه العرب والاتراك بكثرة يدعى الكيف ، ويشبه نبات القنب عندنا . وبعض اوراقه طويل وبعضها الآخر قصير وتقتلع سيقانه في الحريف وتجفف وتباع بكميات كبيرة او صغيرة . ويقتلع المدخنون الاوراق الصغيرة ، ويقطعونها بسكين قطعا صغيرة ويدقونها ويخلطونها بتبغ قليل مدقوق ايضا . ويستعملون في تدخينها قصبة رقيقة . طولها قدم . بغليون في حجم قمع الخياط ، وفي مقاهي قسنطينة يجلس الناس في حلقة . ويسحب الواحد منهم بعد الآخر سحبتين او ثلاث من نفس القصبة ، ويبلغ الدخان ولا ينفثه الا بعد ان يصله الدور للمرة الثانية . وتصبح المجموعة كلها بواسطة غليونين من هذا النوع سكرى ، تغط في نوم عميق .

وكثيرا ما كنت اضطر هناك إلى لوم نفسي على اننا نحن الاوربيين لا نعرف كيف ندخن . فقد صعب علي ان اتعلم تدخين الكيف اوما يشبهه . والنساء هناك لايدخن . إلا ان كل واحدة منهن تحمل علبة سعوط . لاتاخذها في انفها . بل تضعها كزهر الربيع في فمها . وهم يعدون السعوط بانفسهم . ذلك انهم يحشون التبغ بخشب إسفيني الشكل في اواني طينية شبية بالزهرية ويخلطون كتلها بقليل من الشب . وبعد ذلك يصب الحساء فيتم إعداد التبغ .

وجبال سكان الصحراء غنية بمعادن الملح .ولهم تجارة واسعة بالملح الذي يطبخ او يجدونه مجففا بفعل الشمس ، وكذلك مناجم الملح التي يرسلونها إلى قسنطينة في حجارة تزن

قنطارين . وهذه المدينة تستورد من هناك ايضا كثيرا من خشب البناء إذ توجد هناك اشجار العرعر ، يتراوح طولها بين 18 و24 قدما ، وسمكها قدم واحد ، والخشب ثقيل جدا ، ويبقى لمدة طويلة . ويزداد متانة كلما طالت مدة وجوده في البناية . وهذه الجبال هي مسكن الاسود ايضا . فيشاهد المرء قطيعا منها . يتراوح عدده بين الثلاثين والاربعين ولذلك فان الأهالي لا يسكنونها ، وإنما تعتبر ملجأ للمطاردين من طرف الباي ، والغريب أن الصخور تحتوي على مغارات توجد فيها من حين لآخر قطع نقدية . فقد حمل سكان الصحراء عدة مرات إلى الباي قطعا فضية بشكل طويل مربع ، مكتوبة باللاتينية ولكنها لا تقرأ .

وتدور في فم الشعب حكايات بديعة عن هذه المغارات والجبال كلها . من بينها ما رواه لي المماليك من أن في هذه الجبال مغارة ، يلاحظ المرء في مؤخرتها كومة كبيرة من الذهب ، ولكنه لا يستطيع الأقتراب منها ، لأن ببابها رومانيين عنيدين يرفع كل منهما سيفه ضد الآخر ، ويسدان المدخل — فحبذا لو أن الحاكم الحالي لقسنطينة أخذ على عاتقه البحث عما إذا كانت حقيقة مغارة ، تقف أمامها تماثيل رومانية ، ظنها خيال الأهالي أناسا أحياء .— وقد حدثني المماليك أنفسهم عن مغارة أخرى ، توجد بها أيضا كنوز كبيرة من الذهب والفضة . ومن السهل على المرء أن يصل إليها ، فاذا أخذ منها شيئا ، تكون بالمدخل جدول عميق ، يستحيل عليه الخروج منها ثانية ، غير أن الجدول يختفي بمجرد أن تعاد الكنوز الى مكانها . وقد حاول عربي عدة مرات أن يحرز على شيْ من الذهب ، ولكنه فشل في ذلك دائما بسبب الجدول ، وأخيرا خطر بباله أن يأخذ معه كلبه ويقدم له عدة قطع ذهبية في الخبز ليبلعها . وقد نجح هو نفسه في الخروج ثانية ، ولكن الكلب لم يستطع عبور الجدول إلا بعد أن أخرج الذهب الذي بلعه !

وكان بعض ما يتصورنه خارقة من الخوارق يعود في الحقيقة إلى ما يظهر لهم من أنه كذلك منها مثلا الأضواء التي تضلهم في الطرق المعروفة لديهم جيدا حين يرسلون فرادى من المعسكر إلى المدينة أومن المدينة إلى المعسكر. وقد وقع لي أنا نفس ما يشبه ذلك سنة 1836م عندما دعيت إلى مقابلة الباي في المعسكر ، ففوجئت بظاهرة طبيعية أخرى .

صعدت مع مرافقي في المساء قبل غروب الشمس جبلا صغيرا ، ولما وصلت إلى قمته لمحت في دهشة بحيرة كبيرة كما لمحت خلفها المعسكر في الجانب الآخر من الجبل وعندما سألتهم كيف نصل إلى هناك ما دام طريقنا يمر بالبحيرة مباشرة ، وليس هناك أثر لطريق آخر ،

الهوامش

1 — كتب المصفف بهامش صفحة 48 كلمات الشهادة ، التي أضاف اليها المؤلف كلمة قولوا ، بصورة صحيحة .

2 — يبدو أن المؤلف لم يسأل مرابطا ، وانما سأل طالبا بليدا !

3 — ذكر موريتس فاغنر (رحلات في ولاية الجزائر ، لا يبتسيغ 1841 ، ج 1 / 214) أن ابن زعمون كان يسكن حوش بني شنشنة قرب وادي يسر .

4 — أنظر ما يقوله صاحب المرآة ، حمدان خوجة ، ترجمة د . الزبيري ، الشركة الوطنية 1975 ، ص 59 .

5 — أورد فاغنر (رحلات 1 / 214) أن سيدي علي بن عيسى كان يعيش في قرية قرومة ، وأن عمره كان يناهز المائة ، وذكر المؤلف نفسه في مكان آخر (ج 1 / 180) أنه توفي في صيف سنة 1835 ودفن في قرية فليسة .

6 — لعل حالة المؤلف النفسية هي التي جعلته يبالغ في تقديره ، والا فكيف يمكن احضار أكثر من ثلاثة آلاف امرأة في بضع دقائق ؟

7 — ورد اسمه عند محمد الصالح العنتري ، تاريخ قسنطينة ، ص 117 ، محمد بن البجاوي ، وانظر كذلك مذكرات أحمد باي ، ترجمة د . الزبيري ، الشركة الوطنية 1973 ، ص 73 .

8 — يتحدث أحمد باي في مذكراته (ص 25 وما بعدها) عن صراعه مع ابراهيم باي .

9 — تحدث العنتري (ص 88 — 91) عن أخبار هذه الثورة .

10 — هذا مخالف للرأى الشائع الذي يقول ان أحمد باي كان في الرابعة والخمسين من عمره سنة 1834 (أنظر السياسة العثمانية ، تأليف أرجمند كوران ، ترجمة الدكتور التميمي ، تونس 1974 ، ص 80) ، ويجدر بنا أن نلاحظ أن شلوصر يقدم هذا الوصف للباي سنة 1832 . أنظر أيضا مذكرات أحمد باي ص 6 .

11 — لعل المؤلف يقصد المعركة التي وقعت أيام حسين باي مع الجيش التونسي الذي حاصر قسنطينة بقيادة الكاهية سليمان وانجليز باي ، أنظر الحاج أحمد المبارك ، تاريخ حاضرة قسنطينة ، الجزائر 1952 ، ص 17 .

الا أنه أضاف لي النهاية معلومات أخرى ، وهي أن أحمد باي قد أصبح منذ احتلال الفرنسيين لمدينة قسنطينة يطوف بالحدود التونسية ، وقد تخلى عنه أعوانه ولولا حماية الحراكته له لقتله العرب أو سلموه الى الفرنسيين . وقد ترك الآن (سنة 1839) أعماله الحربية ، وكان آخر عمل حربي قام به هو أنه هاجم في شهر أكتوبر (سنة 1837) قبيلة قرب غالمة ، غير أنه انسحب بسرعة عندما اقتربت منه فرقة فرنسية . ويضيف فاغنر أن مظهره تركي تماما ، له لحية ضاربة الى الحمرة ، ونظرة حولاء ، وقامة متوسطة ، وأبرز خصائصه التعصب والقسوة والشهوانية .

43 — تحدث فاغنر (رحلات 3 / 332 — 333) عن صاند هذا وقال عنه انه ولد ، حسب روايته ، في مدينة دريسدن ، والتحق بالفرقة الأجنبية ، ولكنه أسر في منطقة الجزائر ، وأخذ الى المرابط سيدي علي بن عيسى بجبال جرجرة ، فأسلم على يده ، وعاش هناك مدة طويلة ، وعومل معاملة حسنة وكان يتمتع بنصيب كبير من الحرية . ولما سمع أحمد باي بأن مهنته صناعة الخراطيش ، طلب من المرابط أن يتنازل له عنه ، فصرفه المرابط رغم أنه كان قد ألفه وتعود عليه ، وودعه والدموع في عينيه ، وأكد له بأنه سيعيش في قسنطينة حياة أكثر سعادة . واستقبله أحمد باي في بداية الأمر استقبالا حسنا ، وقدم له بيتا وزوجة ، ومنحه كل ما يحتاج اليه لاقامة معمل ، الا أنه لم يلبث أن كلفه مالا يطيق وأرغمه على العمل حتى درجة الارهاق . وكان يأمر بضربه بالفلقة كلما توانى في تحضير الخراطيش المطلوبة ، وكانت آثار الضرب ترى في قدميه . ولعب صاند أثناء الحصار الثاني لمدينة قسنطينة دورا رئيسيا في الدفاع عن المدينة وتولى الاشراف على احدى البطاريات . وعندما فتح الفرنسيون نيران مدافعهم من فوق كدية عاتي لضرب السور وتهديمه ، أعلن صاند أن المدينة قد ضاعت ، فاغتاظ السكان لذلك وقيدوه وأرسلوه الى ساحة الاعدام ، ولكن قائد البلاد ، الذي كان في سره صديقا للفرنسيين ، أنقذه من محنته . واستولى الجنود الفرنسيون على منزل صاند ونهبوه مثلما نهبوا المنازل الأخرى .

44 — يذكر فاغنر (رحلات 1 / 346) أن باب قصر الباي كان يعلوه نقش محتواه : هذا القصر يعشي بصر المتفرج بجماله ، ويسكنه السلطان الحاج أحمد باشا ، نصره الله على القوم الكافرين . لقد شتت الله شمل الأعداء كما تشتت الريح الغبار . زاده الله مجدا وسلطانا ، ومنحه قصورا في الجنة ، وعمرها بملايين الحور العين ان شاء الله آمين .

45 — لعل المؤلف يعني مصطفى انجليز باي الذي عزله باشا الجزائر ونفاه الى تونس ، أنظر أحمد المبارك ، (ص 14 وما بعدها) .

46 — يذكر فاغنر (رحلات 2 / 94) أن العرب يرون في طائر اللقلق مرابطا مسخ ، لأنه ارتكب اثما ، وقد زاد من اعتقادهم هذا أنه يبني أعشاشه فوق المساجد ، ويتصورون أنه يتوجه بدعواته الى السماء حين يرفع رأسه الى الوراء ويطقطق بمنقاره .

47 — وصف فاغنر (3 / 147) المقدم يوسف بأنه مارق ايطالي ، كان قد أسره القراصنة التونسيون في

أيام طفولته ، وترعرع في قصر باي تونس ، وتعلم العربية والتركية بصورة جيدة . أنظر أيضا ما يقوله عنه أحمد باي في مذكراته ، (ص 41 وما بعدها) .

48 — تحدث الباي في مذكراته (ص 39 — 40) عن انتشار الوباء في المدينة وعن توقفه بعد اقامة الصلوات في جميع المساجد .

49 — الظاهر أن الصحراء تعني بالنسبة للمؤلف منطقة سوق أهراس وتبسة وغيرها من المناطق الشرقية التي تحتوي على آثار رومانية .

صفحة



قسنطينة أيام أحمد باي

وثيقة هامة وجديدة في نفس الوقت تتحدث عن مدينة قسنطينة قبل أن يتم احتلالها، وتبرز بصورة خاصة الصراع الذي عرفته منطقة الشرق الجزائري بكامله في تلك الفترة، كما تقدم صورة صادقة عن ظروف الاحتلال وملابساته العديدة، دون أن تغفل دور المواطنين في مقاومة المعتدي ومحاولتهم الوقوف في وجه جنوده وأمام مدافعه الفتاكة.

ISBN 978-9947-24-376-3
9 789947 243763